محمد نفّـاع
رواية
48 ثانية
محمد نفّاع
48 ثانية
ما هو الحب وماذا يغير في حياة شخص ما
ما هو شكله أو طعمه أو رائحته
هل من الممكن أن يزورنا ولا ندري به
كل هذه الأسئلة راودت كريم وغيرت من شخصيته على
مدار السنين التي قضاها بعيداً عن بلده الأم بعيداً عن
حبيبته أو عن آثارها ...
الحب جبل شخصيته بخليط من القسوة والمرارة
والفقدان
وصنع منه قالبا أفضل ونسخه أكمل من كريم المراهق
يمر القارئ بمراحل عمر كريم كلها ويسبر أعماق تفكيره
وتقلب شخصيته ونضجها
ثم يكون له الحكم الأخير في كيفية رسم النهاية
هل سوف يكافئه الحب خيراً أم ماذا؟
إنك وباختصار... روحك صورة أخرى عن روحي التي لم
أظن يوماً أنني أريد البحث وبشغف داخلها، دائماً أعلم
أن الأسرار الكبيرة طالما تفضح نفسها أمام مرآتها وفي
الوقت الصحيح جداً لذلك تركت كل ما بجعبتك ورحت
أبحث عن الوقت، إنه السبيل الوحيد لتعري أرواحنا
لنطلق كل ما بداخلنا ولننقذ أنفسنا، لنصنع روحاً أو
أملاً ونبدأ رحلة أخرى بحثاً عن شيء بدا أثمن ولم يعنِنا
يوماً... إنه الأمان فقط...أمان الحب ... الوجود ... أن
نكون...

48 ثانية

الكتاب: 48 ثانية
المؤلف: محمد نفاع
تصميم الغلاف: رهام الجرمقاني
الطبعة الأولى: 2022
حقوق الطبع محفوظة © دار الحوار للنشر والتوزيع

ISBN: 978-9933-667-25-2

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

يمنع نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو أجزاء منه بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى دون أذن خطي مسبق من دار الحوار للنشر والتوزيع.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the written permission of Dar Al Hiwar Publishing Company

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية،
هاتف وفاكس: 339 422 412 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com

محمد نفاع

48 ثانية

دار الحوار

لا شيء يؤرقني لا قمح ولا قمر

أنا النديم الذي بكى على حلمه السهر

إهداء

أمسكت بيدي حين تعثرت وشدتها ، قالت لي

أنت على الطريق الذي شعرت أنه طويل، وأنا أقول لك . . إنك في المقدمة، وإن لم تؤمن فأنا مؤمنة، وإن آمنت فأنت معي . . هدى ً للطريق.

إننا في الحب هذا ماضون حتى نصل أكثر من بعدنا الثالث معاً ، وإن سألتني لم الثالث ؟ كالعادة أقول لك بُعدنا الأول هو وجودنا معاً..

بُعدنا الثاني هو كل ساعة حبّ قضيناها على الرصيف أو في جزر المالديف، وبُعدنا الثالث هو هذا الحب الذي لا ينتهي

1

طاولة ورقة وقلم

أنا ماضٍ إليك... الآن نعم أنا أطير فوق خطواتي التي رُسمت لي.. أكاد أشعر أن شعري يداعب غيمة وأن أصابعي صُبت من ذات الفولاذ الذي صببت أنت منه، ماض فوق كل شيء ماض إليك يا سيدي.

عندما تشعر أن العالم ينهار من حولك إذاً أنت في المكان الخاطئ، وكلمة مكان هنا غير مرتبطة بالجغرافيا أبداً.

إنما هي كل من أحببت وكل من أعطيت وكل من أثرت عليه وكل من قدست وكل ما قدست.

إنه الرحيل، دائماً ما يكون الحل الأمثل في هذه الأوقات ... والرحيل أيضاً لا يرتبط بالجغرافيا المتعارف عليها إنما يرتبط بجغرافيا قلبك فقط... إنها مداك الأبعد الذي من الممكن أن تتوصل إليه

إن تنكروا لك ابتسم وقاوم ... وإذا أهانوك.. قل لهم قولاً جميلاً... إذا استفاقوا على كرهك.. أفق على محبتك لنفسك.. وإن ناموا على ضغينة... نم على إيمان بروحك الطائرة إلى مداك الأبعد... إن قالوا لك قولاً جميلاً، إنني لشاهد أنهم لا يقصدون...

العالم لا ينهار يا صديقي... لا ينهار أبداً وأنا شخصياً لا أُؤمن أن هنالك موجة من العنف قد تعطب شخصاً إلى الأبد نفساً أو جسداً...

أؤمن أننا في كل صباح نولد من جديد... يا صديقي...

لقد علمتني أن أكون صديقك الأول والمفضل والمقرب والأخير... علمتني أننا عندما واجهنا كل موجاتنا العارمة وقفنا معاً كما تقف جبال الألب وقاسيون وجبل الشيخ...

لقد صنعت مني الرجل الأقوى والأعتى... حتى بُت أسخر من كل تحديات الذات وتحديات الآخرين.

أنت هو حبي الصادق الأول، أنت كل ما امتلكنا معاً على طول هذا الطريق الذي قطعت أنت نصفه معي ونصفه معك أنت..

كل ما بنينا بنيانه ثابت قوي كوتد من فولاذ في قلب صخرة سكبت عليه سكباً.

(لا تحزن إن الله معنا) قلتها لي مراراً وأنا أقول لك لا تقلق إننا معاً وإن الله معنا وإنني أؤمن بك حدَّ الإلحاد بغيرك، وحدَّ الإمساك عن حب ذاتي... لا تحزن إن للأيام بنا شوقاً قد لا ينتهي.....

إلى صديقي الأول ومعلمي الأول، إلى الذي صنعني وخط خطوط سواعدي وخط خطوط قلبي وعقلي ألقاك قريباً يا أبي.

-وصلتني رسالة ماركوس الإلكترونية هذا الصباح... ماركوس الذي بغفلة عين أصبح رجلاً، لا أعرف ماذا علي أن أشعر، أو من أين أتى ماركوس بكل بلاغة الحديث هذه وأين تعلم أن ينتقي ويصفف حروفه بهذه البراعة.

أغلقت كمبيوتري المحمول، نهضت عن طاولتي وتوجهت إلى المطبخ، أعددت فنجان قهوة تركية وحرصت على اللّذعة المرّة فيها، طالما نستلذ بتلك اللّذعة فيما نصنع دائماً .

اليوم وأنا على وشك أن أواجه حقيقة أن عيد ميلادي الـ 48 على مسافة أقل من شهر حتى العاشر من أيلول المقبل، وبعد أن مررت مرور الكرام على ذاكرتي القصيرة (ذاكرة المهام اليومية)، وقفت إلى نافذتي الدمشقية القديمة أنتظر أن يستفيق ما بداخلي لبدء يوم دمشقي بامتياز خلال إجازتي التي خططت أن تكون قصيرة هنا.

وعند كل وصول إلى دمشق أشعر بنفسي في العادة ذلك الغريب القريب الذي ينقصه حس الانتماء الجغرافي والاجتماعي إليها، هناك دائماً فراغ في رأسي لا يملؤه شيء سوى إقامة طويلة أو لربما إعادة فهم من جديد لكل ما هو حولي، وهذا يتطلب عملية من الانخراط الممنهج .

هناك الكثير والكثير في هذا الشارع، منهم من يمشي وكأنه مجرد جثة تتحرك ببطء وأحياناً برشاقة، منهم من يحمل الحياة كل الحياة يخبئها تحت ثيابه، يظهر ما أراد عند كل فرصة متاحة للحياة من رأيه وزاوية رؤياه.

وقفت إلى نافذتي وضعت فنجاني على إطارها الخشبي، أشعلت سيجارة، وبدون أن أشعر رحت أفكر، كيف لي أن أنظر إليها بنظرة أبٍ عاشقٍ وهو قد تخطّى الأربعين وتخطّى معه أربع نساءٍ ناضجات...

توقظ به حسّ الطفولة الذي لم يتسن له أن يلامسه قط... ونضجت القسوة به قبل نضوج الحب... وبمجرد السؤال عن ماضيه يستنكر عمره الذي أمضاه قبل سن العشرين، ويتناسى معظم التفاصيل التي صنعت منه رجلاً في بداياتها (العشرينيات).

في بداية الحب هنالك مخاضٌ مترافقٌ في تحدٍ (تخطي الذات) إنه على وشك أن يعزل نفسه عن نفسه وعن محيطه، وعلى بداية انسحابٍ كبيرٍ من أفكاره الثابتة والمؤقتة... هذا التخبط الكبير، هذه هي بداية عاصفة من العواطف...

كيف لي أن أرمي كل ما جمعت خلال ما يقارب نصف قرن من مبادئ وحوارات مع الذات... كيف لي اليوم أن أعيد فهم النصوص ذاتها التي قرأت بطريقة جديدة وأعيد تشكيل جسد المرأة بالمفهوم

العام، والنساء اللاتي مررن علي خلال تاريخي... كيف لجسد بدأ يكهل أن يتصرف وكأنه بعمر الاكتشاف لطبيعته وطاقاته، وكيف لي أن أعيد خلط أوراقي... وأين أجد تلك التي أكلها غبار الزمن.

لقد نسيت كيف أشعر في كثير من الأوقات... أو ماذا عليّ أن أجيب بلغة الجسد... هل تكفيني ابتسامة في بعض الأحيان... علّ ما تخفيه لحيتي من ندبات الروح أكثر ابيضاضاً من التي أظهرتها... إنني أتساءل إن كان هنالك لون آخر للشعر يظهر عند النكبات الكبرى، فبأي لونٍ عساها تكتسي! تفتضح أمر رجولتي التي أظهر، وطفولتي التي أخفيها اليوم بوجهي الناضج .

هنالك نكبات أعمق من أن نعبر عنها، إن صمتي في معظم الأحيان أمامها يشبه صمتي حين كنت أشاهد الحرب في مدينتي... آلاف المشاعر ... وآلاف الكلمات التي ترفض أن تخرج...

لا أجد لها سبيلاً لعقول من حولي، كل منا تائه في ضجيجه ويعيش حربه التي أنهكت روحه، ولم تنهك عزيمته عند غريزة الحياة...

هذا الشيب يشبه حجارتها البيضاء، كم من جرم تُخفي وكم من إثمٍ تستر وكم من فضيحةٍ ضاجعتها على مدى تاريخ هذه البشرية... ألم تخطئ الأنبياء! ... هي الوحيدة التي تعلم أكثر من الذين أَرّخوا على ممر حزنها الطويل، وأيام الفرح التي أعطتها طاقة الصمود أمام المطر والرصاص ...

لربما كانت تحمل من الحب والسكينة والعطاء بداخلها أكثر من طاقتنا على فهمه...أو أننا لم نلمس منه شيئاً في الحقيقة ولربما اعتدنا على الحزن أو أنه أصبح شيئاً من ثقافتنا، فبدأنا بتدريب ذواتنا على ممارسته ونسينا كيف ندرب الذات على الحب كما ندربها على الصلاة وخوف الله.

أنا اليوم في نوبتين من العشق... الأولى في طفولتها التي أعيت نضجي، والثانية في مدينتي التي كلما كتبت عنها أحسست أنّي أقف أمامها من قمة جبلٍ عالٍ وأقرأ بيوتها وحجارتها والماء الذي امتزج برمالها... نفس الرمال التي عُبّدت بها الشوارع وبنيت منها غرف العرائس والمسارح والحانات... كيف لكل شيء أن يعيش... كل شيء ... وأنا لست بقادرٍ على أن أعيش امرأة بجسد طفلةٍ... أن أعيش روحاً شبّت وشابت في الخامسة والعشرين، كيف لها أن تقارع نصف عقدها الثاني، ونصف عقدها الرابع في آن واحد، وأن تحتضن طفولتي التي نسيتها عندها تماماً، احتضان أم... احتضان حبيبة... احتضاناً لا أعرف كيف أصفه ولكنني أعلم تماماً أنه الذي أحتاج...أنه الذي علي الآن أن أعيشه... علي أن أتدارك نفسي من نفسي... أن أفكر قليلاً خارج المنطق المعروف، أتدارك نفسي منها ...

كيف منها وهي التي جعلتني وبدون سابق ترتيب أجلس كما كنت في أيام دراستي الثانوية وبداية فهمي لحقيقة أنني لست بخير في ذلك الوقت، وأن عليّ أن أعمل جاهداً كي أكون أقلها على ما يرام...

كل هذه الأفكار وأنا أمام طاولةٍ خشبيةٍ بسيطة صنعت يدوياً بطريقةٍ تقليديةٍ... قلم حبر أزرق متداولٌ في كل بيت من ثقافتنا الاجتماعية الممزوجة بأصناف فرضت في أسواقنا... ورقة صفراء تاريخها يشبه تاريخ القلم الثقيل على قلبي، ما هو سبيل التفاهم مع ثلاثتهم- طاولة وورقة وقلم- وأن أتخطى إحساسي بهم وأدخل في دائرة أفكاري.

منذ كنت... كان هروبي بحثاً عنك وكأن الزمان والمكان في ذاتي سبقوا كونهم حقيقة...

للمرة الأولى أشعر أن المسافة القريبة.. بعيدةٌ على حجم الحب وأنها أقرب من الذات للذات...

منذ كنت... عرفت أنّي على موعدٍ بهذا اللقاء الكبير وأن للدنيا عطايا، وعطاياها غالباً ما تكون سخية بل أكثر سخاءً من حجم الطريق إليها.

منذ طفولتي أشعر أنني الغريب الوحيد بينهم، وأشعر أنهم جميعاً قد التقوا ذواتهم بما هم عليه، وأنني لم ألتق شيئاً من ذاتي... لم أكن أعرف أنه سيأتي يوماً على شكل امرأة بحجم الكون تخرج كل ما بداخلي... وهنا مقياس الرجال للكون يختلف على قدر عزم الرجولة... دائماً كنت أعمل على القضايا الكبرى، وغالباً ما كانت بحجم الحياة أو الموت.

إن تدارك المسؤوليات في ذوات الذكور لا يشبهها عند الرجال ولا يشبهها أبداً عند من بلغ منهم البعد الكبير مع ذاته...

وجودك بالنسبة لي ضرب من المستحيل، فقد بلغت البعيد منذ بدأت عقدي الثالث... لم أعرف يوماً أنني على موعد مع العطاء الكبير في قلب طفلة، طفلة وقد بلغت بُعدها الثالث إذا ما قسّمنا حيواتنا إلى أبعاد أربعة، بُعد الطفولة بُعد الشقاء الصغير، بُعد الشقاء الكبير وبُعد النعيم الأكبر... بين نفسي وبيني اعتقدت أنها الصورة الأمثل لأي شخص خلق في عالمنا الثالث وبحث عن أبعاده خارجه .

عطاءٌ هي على كياني الذي عرفته الآن دون موعد... هكذا تكون العطايا أجمل...

ثم إننا في بعض الأوقات وفي عز نشاطنا وحيويتنا اليوميين نشعر فجأة أن كل الأحمال التي ألقيناها عادت لوهلةٍ وكل النكسات التي مررنا بها، وكل النكبات التي وضعت ندباً في روحنا حتى تشكلت على ما هي عليه اليوم، إنما تشبه رسماً تشكيلياً فيه كثير من الخطوط العميقة والرفيعة والعريضة. لوهلة قصيرةٍ فقط نخرج من أعبائنا ومن المكان والزمان وتمر كل الأفكار الجميلة منها والمرعبة العميقة والسطحية والدفينة وبعض ما أظهرناه...

إنها تحمل كل ذاتنا على أكتافنا وكأنما تريد جلدنا لوهلةٍ، أو أنها تريد أن تنتقم منّا على ذنوب لم نفعلها، لربما ارتكبناها ولم نوقن ولربما أيقنا ولم نعترف أو أننا ببساطة ننكر كل ما يحط من قدرنا أمامنا.

ارتشفت جرعة كبيرة من قهوتي على عجل حتى علق بعضها في بلعومي، وأخدت نفساً طويلاً من سيجارتي، توجهت إلى طاولتي على عجل خوفاً من أن تهرب الفكرة، أخدت ورقة وكتبت بخط مبعثر أكاد لا أستطيع قراءته :

-في كل جرحٍ يا صغيرتي هنالك بعد الشفاء بُعد آخر، هذه الأبعاد تتجمع على غفلة دون سبب، وأنها كلما أرادت الخروج من أرواحنا نرفض أن نُخرجها، فهي الطريق إلى ما وصلنا إليه اليوم. نهرب منها ونكمل اللحظة نفسها دون محاولة فهمها حتى .

كنت أظن أن السبب هو المكان، أو أنه هذا التوقيت من العام، لربما حرارة الطقس الصيفي، أو أنه مرتبط برائحة المنزل، علها أغراضي المترامية على طاولة غرفة النوم أمام السرير... للطاولة تاريخٌ أيضاً... شعرت أنني أصبحت كهل المظهر فجأة، اختصرت عشرات السنين في المضي إلى الكهولة، وطاقتي قد خوت ...

أشتاق الكثير في لحظة واحدة، أشتاق إحساسك الصادق بي... أشتاق رائحتك وأشتاق أن نجلس صامتين أشتاق منزل أبي وسيارته القديمة أشتاق ضحكات فاءلتني، أشتاق ملمس جسدك الحريري، أو أن أرتبط روحياً بشيء ما، هناك تضارب في أفكاري ومشاعري الآن، تضارب لا أستطيع أن أعبر عنه بأي وسيلة امتلكت، لم أرتبط يوماً بمكان ما، كنت دائم التنقل رغماً عني لم أعشق شجرةً أو حجراً ولربما ساحة لعب أو حائطاً قديماً.

أفرط في الحب...

دائماً لدي ما أسميه حالة الفرط في الشعور، أفرط في الحزن أحياناً، أفرط في الحب والشوق والغضب، ولكني واثق جداً أنني لم أنم يوماً من فرط السعادة ولا أعرف كيف عساها تتعبني حد النوم.

وضعت قلمي فوق الورقة، شعرت أن ما أقوم به ليس له أي معنى أو قيمة إن كان لا يملك إشارات درب الوصول إلى من يضع ورقة مثل هذه في كتاب قديم، أو جيب معطف شتوي معلق في خزانته كحقيبة أسرار، تبعد الشبهات عما في داخلها.

عدت إلى قهوتي، أنظر إلى الشارع شارداً أتذكر شارعاً آخر لست مرتبطاً به، فيه عواكس تنير الدرب للسائقين، وعلى جانبيه زُرعت

أشجار صنوبرٍ، رُمي تحتها الكثير من الأوساخ، حتى وجه الشارع لم يكن صافياً...

لقد شهد على الكثير...

وفي وسطه جسر كتب عليه عبارة مبالغٌ فيها عن حب الوطن وأخرى بلون بخاخ فسفوري - أحبك جداً - تليها ثلاث نقاط، وتحتها خط مائل، وكأن كاتبها كان على عجلة، أو أنه كان خائفاً حينها أن يُرى، وتحت الجسر تقف فتاة في العشرينيات من عمرها، ترتدي سروالاً أسود، وكنزةً عليها شخصية كرتونية. لربما ظننتها مغريةً، ولكنها لم تكن، تلبس حجاباً أسوداً وتحمل بيدها هاتفاً نقالاً قديماً، وتنظر إلي بطريقة لا أريد فهمها، تنتظر أحداً ما أو أنها تنتظر أن تكون على قيد الحياة أو الحب. هناك كلب يعبر الشارع، إنه تائهٌ كالجميع، ورجلٌ مسنٌ يملك ثلاثة أسنانٍ فقط ظهرت بوضوحٍ عندما ابتسم، على رأسه وشاحٌ ويلبس بدلةً قديمةً مهترئة... كيف وصل إلى هذا الحال.

كنت دائماً أبحث عن دليل بين الناس... علي إذا عرفت قصصهم أعرف ما أنا فيه، كنت الوحيد دائماً أبحث عن روح داخل أرواحهم، لم أجد روحاً قط ولم أجد إشارة على الحياة فرحلت مجدداً أبحث... لكنّي لا أعلم عمّا أبحث.

ارتشفت القهوة الممزوجة بالنيكوتين ثانية، وتوجهت إلى الطاولة.

ثم كتبت لها ...

-كنت طوال الوقت قبل أن ألتقيك على يقين تام أنك تحملين الأشياء نفسها، الأرق نفسه والضياع نفسه والألم نفسه، الحيرة نفسها، تبحثين عنه في وجوه الجميع، كنت أعلم أنك ولأسباب مختلفة؛ لن يكون لي أمل في يوم ما بالتوصل إليها أو لشيء منها.

إنك وباختصار... روحك صورة أخرى عن روحي التي لم أظن يوماً أنني أريد البحث وبشغف داخلها، دائماً أعلم أن الأسرار الكبيرة طالما تفضح نفسها أمام مرآتها، وفي الوقت الصحيح جداً لذلك تركت كل ما بجعبتك ورحت أبحث عن الوقت. إنه السبيل الوحيد لنعري أرواحنا لنطلق كل ما بداخلنا، ولننقذ أنفسنا، لنصنع روحاً أو أملاً ونبدأ رحلة أخرى بحثاً عن شيء بدا أثمن ولم يعنِنا يوماً... إنه الأمان فقط...أمان الحب... الوجود... أن نكون...

ثم وبنفس الترتيب على هذه الورقة التي تقرؤها أنت في روايتي أضفت :

هل لي ببعض العشق سيدتي

إني أرى على جفنك حلماً

وبين شفتيك أثير ليل

هل لي أن أكون حين نكون ... حين نتوه ثم نلتقي

نحن كيانٌ لم يحن ملتقانا

حبيبة الشمس التي لقحت غيمة... فأمطرت عشقاً ونيسانا

لدي الكثير في هذا الصباح على الأعوام الـ48 على شبابي المتأخر هذا، أحمل في داخلي شغفاً لا يليق بشيء من حولي. مكاني... علاقاتي... تاريخي... ماركوس وكل ما يربطني بهذا الكوكب الواسع الصغير ما بين القارتين اللتين تنقلت بينهما .

هنا في هذه الغرفة وما بين أريكة وطاولة... أردت لوهلة أن أستغرق في الكثير البعيد الذي مضى، وأن ألخص كل ما حدث وأخرج منه خروج الأبطال أمام مرآتي... أن أمشط لحيتي في آخر هذه الإجازة وأنا فخور بها وفخور بكل ندبة طُبعت على قلبي... أردت أن أجعل من نسياني للأشياء التي طالما أردت أن أنسى مخبئاً آخر...

عدت ثانية إلى نفس الطاولة، أخذت ورقة جديدة في محاولة ثانية خجولة، وعدت أكتب كل ما مضى من جديد. وأخذت العهد على نفسي أن الذي يُكتب هنا سيبقى هنا في مخبئه الجديد. عدت

إلى البداية تماماً حيث كان جنى قلبي الأول وبدأت بالسطور التي أنت على وشك قراءتها الآن...

-علينا أن نغتنم كل فرصة للحب سواء اعتدنا ذلك أم لا... لأنه أحد أهم مفاتيح السعادة ،وأنا هنا أقول اعتدنا ولا أقول إن كنا نعرف ذلك أم لا نعرفه...

معظمنا كبشر لدينا هذه المعلومات العامة ونرددها بين كل فترة وأُخرى، في هذا اليوم لا أعرف سبب حساسيتي العالية هذه، أرى كل شيء حولي مرتبطاً بشعور ما، في عاداتي اليومية لست هكذا وإني كرجل أضع فواصل بين مشاعري ويومياتي، فنحن الذكور نفتح صناديق المشاعر في أوقات محددة، وغالباً ما تكون بأوقات الوحدة في ساعات المساء، أو عند الظهيرة لكنني وفي عمق هذه الجلسة أتى إلى ذاكرتي هذا المشهد .

ركنت سيارتي الزرقاء عند مدخل أحد المتاجر، ودخلت لا أعرف لما أتيت أو ماذا سوف أشتري، توجهت بشكل تلقائي إلى رف المشروبات، تناولت قنينة ويسكي (بلو ليبل) وكأن كل شيء مرتبط باللون الأزرق. توجهت بصمت وبابتسامة إلى المحاسب دفعت، عبر بطاقة البنك ثم عدت إلى السيارة ثانية.

هذا المشهد يومي يتكرر مع الجميع ولكن دون أن يعلق في ذاكرتنا أو دون أن نضعه بأي من صناديقنا الذكورية

يعبر وينسى فقط

لكن هذا حدث منذ عام تقريباً ولم أفكر به على الإطلاق لكن اليوم مر على ذاكرتي اليقظة دونما سبب .

شعرت بارتياح أيضاً دون سبب، وأشعلت سيجارة ومضيت على الفكرة...

خطرت على بالي قصيدة *تنسى كأنك لم تكن* لمحمود درويش، أخذت هاتفي وبحثت عنها في الإنترنت ثم قرأتها بصوت عالٍ، ثم سمعتها بصوت الشاعر، ثم انتقلت إلى قصيدة *انتظرها* وعلقت في ذهني جملة: (جلس بارتخاء القرفصاء هكذا أرتاح أكثر).

بقيت أرددها لأيام... شعرت أن محمود درويش أراد التعبير عن حريتي التي أحس بها بعد خذلان كبير، بأكبر كمّ ممكن من البساطة.

وإني كما قرأت ولقنت عبر تاريخ أمتنا المخجل خلال المئة عام الماضية على علم بأننا الذكور ... مررنا ونمر بكميات هائلة من الخذلان... نعم لكن لسبب ما نقتل كل شعور مرتبط به ونمضي... نمضي نحو خذلان آخر، ثم ننتفض ونحصل على جرعة جديدة من

الأمل والفرح والسعادة والرضا... ولسبب ما أيضا نهجر كل شيء ونبحث دون يقين عن أنفسنا التي لا نجدها غالباً ثم نمضي... وهكذا حتى نصل إلى... الحب

ثم إنني وعلى قدر المرات التي وصلت بها إلى الحب، وعن سابق إصرار بتأريخ كل ما مضى بشكل لائق جداً، بدأت بالكتابة ...

2

جنى (من وجهة نظر مراهق)

كانت كما اسمها تجمع من الحسن ما يشبه بستاناً في أوج الربيع، هي مكتنزة كثمرةٍ حان وقت قطافها، وفيها من اللذة ما يفسد قلب ناسك أخذ الصيام أسلوب حياة...

كانت تنظر إلي وكأنها ترقب حلماً... جنى تشبه مرجاً... على خدها زهرة وعلى خصرها سنبلة... في ضفيرتها بيت شعر... وعلى انسياب جسدها هنالك حلم، إنها تشبه طائر المعشوق وفي ضحكتها رنين وشهوة وشقاوة، وفي أنفاسها جحيم وأنين وأناة... كنت أراها... أيقنت ذلك.

أنا على وشك اكتشاف أن المرأة بالمفهوم الأول جسد... وأنها دافئة... لقد اختلست النظر إليها، لم أكن قادراً على أن أستوعب كيف أن جنبات ثدييها جمال، رأيتها شهوة، رأيت الكثير الذي لا أحتمل، أغازل جانبه وأنظر إلى عينيها... لم تكونا بريئتين.

اعتقدت في بادئ الأمر أنه صدفة وأنني حققت انتصاراً، أولاً على أسرارها... لقد اكتشفت أين تخبئ عطرها في كل صباح، وأنها تحولني إلى أحمق بفعلة صغيرة.

ذات يوم من أوائل أيار جلست إلى جانبها وهي تقرأ واجباً، وأنا واجبٌ بها أنظر إليها كقطعة سكر وأشعر أن الزمان انتهى والمكان انتهى وأن الكون تمحور. تلامسني ببراءة مقصودة وأخاف خوف طفل...

جنى تشبهك فهي جريئة وعلى شفتيها ثورة وفي خصرها انتحار ... فيها شوق... فيها ولع... في عينيها حياة... وخبز وماء .

في ظهيرة الثالث من أيار عدت إلى منزلي النمطي على حافة مدينتنا القديمة، كنت أكره واجبي المدرسي وأشعر أنه ثقل، لطالما كرهت الأشياء التي تأتيني فرضاً، وهو فرض، إنه كواجبي عندما يطلب مني أبي أن أجلب شيئاً بسخرية.

وضعت دفاتري عند طاولة التلفاز الخشبية القديمة... طالما نبذتها... وهرعت كعادتي أبدل ثيابي، لم أطق أن أقضي أي وقت في منزل أبي... خرجت منه بحثاً عن ذاتي.

دخلت ورشة النجارة، وبدأت أطبق تعليمات قاسم وكأنها جاءت في كتاب مقدس، لم أحبه يوماً، إنه يبدو ككلب مسن، لم أطق رائحة جسده، تصاعد أنفاسه، فظاظته، ثيابه الرثة أو حتى شعره الخفيف ولحيته المتشابكة، الطريقة الفظة التي يأكل بها الفطائر من دكان جاره، ولطالما أحسست أنني آلة في دكانه فأنسى كل ما سبق من قبح وأكمل يومي مقابل أجري .

في ذلك اليوم عدت قبيل غياب الشمس، لم أكترث أين رمت أختي الصغيرة دفاتري، وجدتها صدفة على جانب سريري الذي رتبته أمي هذا الصباح بصمت وحب، جلست وقد أنهك التعب جسدي ثم استرخيت على ظهري ووضعت معصمي على جبيني ولوهلة بدا لي أن عطرها يميز أحد دفاتري (عطر جنى)، حملته كي أكسر الوهم ولكنني تيقنت أنه حقيقة... إنه الياسمين ذاته أو لعله نرجس...

بدأت أقلب أوراقه بحذرٍ شديدٍ كمن يتوقع هديةً كبيرةً لا يستحقها... كتبتْ لي في المنتصف فهي تعرف أنني لست على علاقة

جيدة مع واجباتي أو دفاتري علها لم تردني أن أقرأ... بلهجة عامية (بحبك).

تسارعت نبضات قلبي وقفز الدم إلى عروق يديَّ، شعرت بتواصل مع دفتري، صفحاته أكثر ابيضاضاً، أحسست أن الكلمة خُطت بإحساس كبير، اتسعت الغرفة فجأةً، بدا لون سريري الأصفر براقاً وخزانتي أنيقةً وصوت ثرثرة أمي على الهاتف قريباً إلى قلبي حد اليقين، أصوات أبواق السيارات في الشارع تعبر عن سعادة ما، صوت البائع المار في الطريق حيوي جداً...

هنالك أحدٌ يحبه.

أغلقت دفتري ووقفت وأخذت نفساً عميقاً أوسع صدري، لم أعرف ماذا أفعل، فكرت بأن أكلم صديقي الذي أراه طفلاً أو أن أهاتف صديقتي، ولكنها حتماً ستفتضح أمري أمام بنات الصف، وستجعل منها حكاية الفصل وأجعل من نفسي غير جديرٍ بالثقة، هل أخبر أمي حتماً ستسخر مني، أبي لم يعرف الحب قط، علي أن أحمل هذا الدين الكبير لها وحدها، هي فقط، وأن أسده على طريقة الرجال، وأحمل هذا الدفتر على صدري وأتعهد أوراقه بالبقاء سليمة طالما حييت ...

لم تكن (بحبك) كسابقاتها، إنها جنى التي ترافق تفكيري كل يومٍ قبل نومي، والتي أتعطر لأجلها قبل خروجي كل صباحٍ. منذ عرفتها أمشط شعري لأجلها وأكوي قميصي لأجلها، أتكلم أمامها فقط على طريقة الرجال، هي التي بمجرد حضورها تصنع مني بُعداً آخر، وتحوم حولي هالتها وتتغير رائحة الهواء من حولي وأشعر بدفء الشمس وبرد الظل، هي تحييني...

إنها ثمرة تين وقد استوت وفي فمها رمان وقد تفتّح...

لم تكن بداية هذا الصيف باردة الليل فهي تشدني إلى نافذتها، جنى تسكن على بعد عشر شوارع لم تعني المسافة شيئاً ولا سكون الليل ولا سؤال سائل عني، المسافة قريبة بعيدة، لا أملك ثمن أجرة الحافلة، لا أملك سوى أملٍ، عينيها، حلمٍ، مطرقة، منشاراً ودفتر كُتب في وسطه ولادةٌ جديدة، لم أدرك أنها نفسها ستكون نهايتي الأولى على بعد مسافة من الزمن.

لقد أخذت بصفعة الكلمة وطرت بين حروفها، شعرت للمرة الأولى أنني أمتلك شيئاً لربما روحاً ومشيت عشرة شوارع، وقفت تحت نافذتها، التي تطل على حديقة البناء ويفصلها عن الطريق عشرة أمتار، وقفت أتأمل شباكها شعرت بترابط معه وبها. خلفه لم أر شيئاً، هنالك ستارة صفراء وضوء يعكس لمعة حليها، وأباجور

الشباك ربع المغلق، وقفت هناك دون حراك أو كلام، وكأنني على ثقة بأنها تعرف أين تجدني في هذه اللحظة تحديداً، لكنني أخاف المكان، وأخاف أن يراقبني أحدهم أو أن يفتضح أمري.

هربت بداية الأمر من نفسي ومن دكان قاسم وتهكمات أبي إلى شرفتها، وعليّ الآن أن أمضي ...

عدت متهادي الخطا، تذكرت أنفاس قاسم ووجه أبي، وتذكرت أنني لست محبوباً عند ناظر مدرستنا، وأيقنت أنني تائه بين ثلاثتهم، نعم علي أن أمضي، أين أمضي! رحت أفكر... ولأنني عند تلك المرحلة لم أستمع يوماً لحديث ناضج، لم أقرأ يوماً مقالة في صحيفة، لم أحضر صفاً خاصاً، ولم أقرأ رواية ولم أحفظ بيت شعرٍ، وأنا فظ مشاكس في صفي أثير ضحكات الجميع في الأوقات الجادة وأستهزئ بمعظمهم، لي سمعة سيئة بين المدرسين لكنها طيبة بين الرفاق، لماذا أحبتني، لم أنم ليلتها كنت أتمنى لو أن جرس الحصة الأولى يقرع ليلاً أو أن الصباح يأتي مسرعاً، بت أفكر كيف سألتقيها غداً وأنا ألتقيها كل يومٍ... وتمنيت لو أن أبي أوصلني بسيارته إلى المدرسة يوماً، أو أنني لم أعرف قاسماً، ولو أن يديّ ليس بها ندبات رجل بالغ يشكل الأخشاب لقوت يومه، علّها أسباب تضيف إليّ بنظرها . وفي النهاية نمت مؤرقاً ...

استيقظت باكراً جداً لم أنم حقاً، في الصباح كنت كالمخمور أمشي باتجاه مدرستي، جسدي حار ويداي باردتان، والطريق أطول من المعتاد، أراقب حركتي لا أريد أن أتعرق، أراقب مشيتي. على حذائي ألا يتسخ، سألت أمي هذا الصباح هل أبدو وسيماً، نظرت إليّ وابتسمت ثم قبلتني، كان في ابتسامتها سؤالٌ لم يخرج وراقبتني حتى الباب، مشيت خارج المنزل بحيوية فائقة، وضعت الكثير من عطري، ونظفت ثيابي من غبار الغسيل...

وصلت إلى شارع المدرسة وانتظرتها... أوقفتها عند البوابة، هي كعادتها تشبه حديقة حب، حديقة شهوة، نضرة كحبة كرز بللها الندى، في رائحتها شهوة وحب وطاقة ... ألقيت التحية وصمتّ. لم أنبس بحرفٍ، شعرت أن الشارع بأكمله يراقبنا، وأن تسريحة شعري خرجت عن السيطرة وأن حزامي قد فلت، وبرغبة مفاجئة بإطلاق الغاز أو دخول الحمام، وأن أنفي سوف يسيل حالاً، تظاهرت بالثقة قدر الإمكان، أحسست أن نصف جسدي الأيسر يرتجف كمن أصابته صدمه كهربائية خفيفة، وأن أسناني على جهة اليسار مكتظة وترتجف في آن واحد .

أخذت بيدي قلماً... كعادتها لم تحمل حقيبة يوماً، فككت رباط دفاترها وأخذت كتاباً لعلم الأحياء، فتحت صفحته الأولى وكتبت لها:

لطالما انتظرت حلماً

لم أعرف يوماً ما هو حلمي...

لم أعرف طريقاً... لم أعرف قِبلةً...

سقط قلمي من يدي، دائماً أختار أقلاماً ذات جودة عالية دون سبب، لعله انسياب حبرها على أي ورقة... كنت أراه جميلاً.

تركته ومضيت هارباً ...هارباً منها وهارباً إليها، شعرت وكأن شخصاً ما يشد قميصي من الخلف وأنني على وشك التعثر، انطلق بوق سيارة فعبرت الشارع مسرعاً، شعرت بها تراقبني وأنا أمشي، وأن جميع من في المدرسة افتضح أمري، أنا الذي لم أخبر أحداً كي لا أُفتضح، لم أدخل ذلك اليوم إلى صفوفي، أشعلت سيجارة ومشيت على أقدامي حتى تورمت وبدأ حذائي يأكل منها، لم أكن أفكر كنت أمضي دون هدىً، وأشعر أن جسدي يرتعد.

عدت عند الظهيرة إلى باب مدرستنا، كانت مع صديقاتها، رأتني وابتسمت كأنها تناديني، اقتربت منها وألقيت التحية لقد صافحتني، كيف لي أن أنسى ملمس كفها وانسياب أصابعها الناعمة... ذات اليد التي أوقفتني...

كيف حالكَ

لا أعلم كيف حالي ... فحالي أنت

ابتسمت واقتربت مني ... همست...

قابلني عند السابعة على باب معهد الموسيقى

ومضت بهدوء وثقة، راقبتها من الخلف أحسست أنها امرأة متكاملة، ومضيت بهدوءٍ ...

إنه يوم ولادة رجل بداخلي... بتّ أشعر بالأهمية وأنه يترتب عليّ واجب الأناقة لم أكن لبقاً، لطالما كانت الكلمات تغويني، عليّ أن أفكر مسبقاً قبل التحدث إليها، أو أمامها خرجت عند السادسة، لم أر قاسماً يومها فهو بخيل يعكر مزاجي.

وصلت قبل الموعد بنصف ساعة، أصلي أن يخرج حلمي، درسها الذي لم ينتهي، لم تكن نصف ساعة أحسست أن الوقت توقف، أرقب الباب من الرصيف المقابل، خرجت بعد نصف الساعة الأولى من حياتي وبيدها آلة الكمان، أنيقة ... شعرها الأسود بدا كستنائياً عند انعكاس الشمس، اقتربت منها ومشينا معاً وكانت مشيتنا قدراً كاكتمال الطبيعة... تحدثنا، ضحكنا، استرقت النظر إليها طوال الطريق، فالربيع يعيد أزهار الأنوثة إلى الإشراق أيضاً، ملابسه تظهر أنوثتهن ويبدو ما فرَّ من ملابسهن بطعم ثماره وبجمال نسيمه البارد...

أغازلها، أشتهيها، أريد أن أقبلها، خدها يشدني، أراقب خطاها، أتأمل انسياب قدميها، كيف لطفلة في السابعة عشر أن تكتمل كاكتمال فصل الربيع، بنطالها الأسود المشدود إلى خصرها وقميصها الصيفي وعطر الليمون لهم وقعٌ على كياني أكبر مني.

أوصلتها عند الثامنة والنصف... انتهى الطريق... ليس لدي قبلة أخرى، ليس لدي طريق ومضى صيفي...

في صبيحة اليوم التالي كنت أنتظر مرور الساعة وأعد الوقت بالثانية... إلى أن حان

خرجت من منزلي بكامل أناقتي المتاحة، حينها رتبت نفسي بكل ما أوتيت... تعطرت لها ومضيت مبكراً من الطريق الذي يمر ببيتها وقفت بعده بما يقارب المئتي متر، وصرت أرقب خروجها كنت على استعداد تام لأن أميزها من بين كل الصبايا الخارجات في هذا الصباح وفي كل صباح... انتظرتا عشر دقائق طوال حتى خرجت... ووقفت أنظر إليها من بعيد وعندما لحظتني أسرعت بخطواتها حتى وصلت إلي... لم أستغرب لماذا تركتها رفيقتها اليومية ومضت في حالها ...

صباح الخير كريم ... وهي تمشي على مهل

صباح الخير يا جميلة

ها قد بدأنا!! اسمع أنا ...

هسسس أنا لست بمتسول هنا، ولم أقف كي أعاكسك أم أن بقاءنا اقتصر على المدرسة؟

لا لكننا في الطريق

أتخافين الطريق... كنت أظن أنني الطريق الوحيد الآن أم أن شيئاً قد تغير؟

لا شيء تغير

إذاً تعالي معي لن ندخل صفنا اليوم .

لا إلا هذا .

أريد أن أمضي الوقت معك، كل ما أتيحت لي ثانية سأغتنمها .

لكنني لست جنى (وفي هذه اللحظة كنت أراقب جنى وهي تبدو كواحة حب، وأنها أثمن ما يمكن أن يكون) إنه اليوم اليوم فقط

فقط اليوم

نعم يا جميلتي أريد أن أصحبك في الشوارع القديمة وأن نتحادث وأن نحكي الكثير الكثير الذي لا يبدأ ولاينتهي.

في أحاديث الحب بالمجمل وليس بالعموم ليس هناك حد بداية للحديث وليس هناك حد نهاية .

كل نظرة عبارة عن محادثة قد لا نعبر عنها بآلاف الكلمات وكل حركة من لغة الجسد كل طرفة عين وكل صوت .

مشينا ما يقارب الكيلومترات أكلنا بوظة الفانيلا وسندويشات وعند موعد العودة أوصلتها من طريق المدرسة لباب بيتها .

كنت أسترق منها لمسة يد وأتقصّد أن أضحكها، أتقصد أن أضع يدي بجانب خصرها فتبعدني .

كررناها مراراً وفي كل مرة كنا نحظى بفرصة الست ساعات نجول بها مرة في قهوة وأخرى في حديقة عامة ومرة في كافيتيريا أو مطعم ...

إن أوقات الحب التي تسرق من القيود غالباً ما تكون أقواها في ذواكرنا ودائماً ما تحفر بنا فنتذكرها مع رائحة ما أو طعم ما أو أي شيء أي تفصيل يرتبط بشارع أو حديقة أو حتى وسيلة مواصلات .

نسيت أن أخبركم أنني أهديتها في يومنا ذاك (أي اليوم الأول الذي خرجنا به قلادة ذات حبة زرقاء وجعلت صائغ الحلي يكتب حرفي اسمينا عليها من الخلف).

أعادتها أمها إلي قبيل سفري بيوم وأختي خبأتها لم أرد أن أحتفظ بحزني معي وأنا هارب منه .

القُبلة الأولى

عند التاسعة... وفي وسط حديقة عامة محاطة بالأبنية السكنية الطابقية... جلسنا على مقعد خشبي أخضر، وقد كتب عليه أسماء وإشارات وأحداث بأقلام مختلفة... جلسنا وأمسكت يدها كالعادة ورفعت كُم قميصها القرمزي... أمسكت معصمها... قلت أحبك، نظرت في عيني وابتسمت

كانت قلما تضع الروج على شفاهها وقلما تتزين، لطالما كانت زهرة تعبق عطراً منها لخارجها... سألتها عن طعم الروج قالت لي لا طعم له .

وبتنا نتهامس. قلت لها لو كانت على مسؤوليتي فقط لكنت وقفت وقبلتك في وسط هذه الحديقة دون أن أكترث لشيء كائناً ما كان .

وهي قبلت التحدي

من منا اقترب، من منا بادر، من منا تاه في الآخر من منا ابتعد أولاً... أحسست أنني لن أكتفي وبدأ قلبي يخفق وبردت قدماي، ضاقت أنفاسي... وبدت جنى ساخنة كقطعة حلوى... وقفت فجأة وهي تنظر إلي بطريقة لا أجد كلمات مناسبة لكي أصفها .

غادرتني دون أن تهمس، وبعد عدة خطوات كانت تنظر إلي بابتسامة لم أعرفها من قبل وكأنها علمت أنني بت من هذه اللحظة أنفاسي رهن ابتسامتها .

قفزت من المقعد لكي أتبعها لكنها سارعت في خطواتها كإشارة لأن أبقى...

عدت إلى المقعد ذاته أخذت نظرة سريعة لما يدور حولي (وكان كل ما حولي طعم شفاه جنى)

وبعد أقل من دقيقة مشيت ببطء إلى بيتي وأنا على فمي طعم شفاه جنى وحرارتها .

أحسست أن هذه القبلة مسؤولية كبرى إنها معاهدة حب، صيف أيلول، هي نيساني القادم، هي دفء شتائي، هي المكان هي الزمان... هي جنى بوعي أنثى.

عدت إلى منزلي وجلست بجوار الهاتف أنتظر مكالمتها، جلست أرقبه حتى المساء وعندما جاءت مكالمتها كنت كالذي ينتظر قدراً جميلاً أن يحصل .

عندما رفعت السماعة وأذكر أن عائلتي كانت خارج المنزل وكأن القدر رتب لي الوقت الكافي لأستعيد نفسي .

جاء صوتها... اسمع ما حدث اليوم

اسمعي أنت، ما حدث اليوم هو تعمق في الحب ما بيني وبينك لا أجد طريقة أخرى لأعبر عنه .

وأنني أريد تقبليك الآن وعندما أنام وأصحو

أراك غداً سأكلمك في الصباح وأقول لك أين نلتقي ...

تبدل المكان... لم أحص عددها باتت قوتي اليومي، قُبلة جنى هي شمس الصباح، لحظة الشروق، ووقت اكتمال القمر، وجودي الذي يحمل معناه، مكالماتنا الطويلة، رسائلنا الورقية...

بت أرى قاسماً يحترمني في تلك المرحلة من عمري لم يكن لدي صديق مقرب كانت جنى هي صديقي، مشوار مسائي وسعي صباحي...

مضى عام ومضيت به أتصرف كالرجال، على الأقل اعتقدت ذلك، هجرت قاسماً، لم يعد أبي يخاطبني بتهكم شديد كعادته أو أنه على الأقل ملّه .

جنى كانت نقلة المراهق إلى بداية الشباب، لقد أعادتني إلى درسي، لم أرد أن تنظر إلي على أنني لم أجاريها يوماً... كانت نقطة التحول من ضياع المراهق إلى بداية اليقين، أو على الأقل علي البدء من منطقة ما ...

في عيد حبنا الأول كان علي أن أقدس السادس من أيار على طريقتي، كنت قد عملت نادلاً لشهرين، لم يكفني أجري من عملي، جلّ ما قدمه أزهار جنى وسجائري، وأنا في صدري حلم كبير كنت أنظر إلى من يكبرني من الرجال، كيف جاء ببدلة صيفية أنيقة. أو هل يا ترى أكون على مسافة بعيدة من مقاييسي الشخصية... هل هو الحظ أم أنه الجهد...

لكنني تيقنت أن علي أن أعمل وأعمل، إنها تتطلب الكثير من الجهد والوعي، وكأنني كنت على يقين أنني سوف أجابه بحراً هائجاً من دون أن أقتني مركباً من بيئتنا ليقلني، كان علي صنع مركبي قبل أن أتعلم كيف أقتني بدلة صيفية أنيقة أو أن أمتلك هدية لـ(جنى).

عادة كنت أستيقظ على صوتها، لم يكن يوقظني صوت أمي، ولا منبهي ولا صوت الباعة الجوالين، ولم أستيقظ على شجار جيراني، لم يزعجني صوت زمور من حافلة، كلهم كانوا نياماً وأنا وجنى كنا اليقظين الوحيدين في هذه المدينة، أيقظتني. رن الهاتف...

علي أن أراك حالاً، لم أعتد أن تستدعيني... بت أفكر أننا افتضحنا.

منذ أسبوعين تماماً كنا في الباحة الخلفية من البناء الذي تسكنه جنى، عادة ما يخرج والدها إلى العمل في ذلك الوقت وكانت أمها قد اضطرت إلى الذهاب لزيارة أختها في ضاحية قريبة.

شعرت أنني المالك الوحيد لقرارات جنى لقد أومأت لي، إنني الرجل الوحيد في هذه الأرض، قالت إنني ولي أمرها وولي قلبها وولي جسدها...

شعرت أنني اشتقت لشفتيها... مضى يومان...

كنت أنظر إلى بابهم الخلفي وكأنني أنتظر دعوتها، لقد أحسست ذلك بداخلي، مشينا إلى الداخل وأنا خائف، إنها تجربتي الأولى في اقتحام منزل غريب وفي اقتحام جسد جنى، أخذت تحدثني عن آلة الكمان وكأنني لم أرها من قبل وكنت أستمع وكأنني لا أعرف كيف

يحن وتره على الخشب فيأتي بأنين يذيب القلب وكأنه أنين عاشق يشتاق...

دخلنا إلى غرفتها... كنت أرتجف تماماً وأشعر أن في صدري شيئاً على وشك أن يقع... مشيت خلفها ببطء وكأن أحداً يراقبنا... وبنفس الوقت كنت قد أخذت بها، وباللحظة تماماً حتى أنني ولوهلة وفي وسط ضياعي فكرت أن أخرج هارباً، أو أن أثني نفسي عنها وأثنيها لكن الأوان قد فات... فكيف لي أن أقاوم فاكهة صيفي ومخبأ بردي... وقفنا في منتصف الغرفة لم أنبس بحرف... كانت على وشك أن تقول لي شيئاً لكنني قبلتها، أحسست أنني ارتكب خطيئة للمرة الأولى، لم أعتد جنى وهي تلتهب بهذه الطريقة، لم أعتدها تترك العنان لكيانها كما حصل، كانت ساخنة... وكانت ردّات فعلها أقوى مما توقعت يوماً كانت جنى في يومها أكثر من بستان حب أو من أن تلتهب في لحظة طيش، ترتجف، جنى قطعة ساخنة من الحب، لم أنتبه إلى شيء من المحيط كان المكان شبه مظلم وكأنها أعدته، كان المنزل بارداً وفيه رائحة ليمون، وأغنية لفيروز تصدح من الراديو على الإذاعة المحلية، أغلقت الباب على عجل ...

كنت في داخلي أريد أن تعزف جنى لحناً على الكمان

لكننا تهنا في أننا... وتهنا معاً في حبنا

شعرت أن الوقت لا ينتهي وأن فراش جنى أدفأ مما تخيلت يوماً، لم أرد الخروج من جنى ولا من فراشها ولا من برودة غرفتها... كان هناك ضجيج.

جلست لوهلة غير قادر على تحليل الموقف كنت مذهولاً بكل شيء، كنت أنظر إلى وجهها لا أستطيع قراءته، كان خداها مكتنزين، وأنفها قد تلون بلونهما، استلقيت إلى جانبها، وقع نظري على خصرها الذي كان يلمع وكان مستديراً بطريقة لم أرها من قبل كان أشهى بكثير، كل شيء يومها أخذ طابعاً آخر، كل ما يخصها، لم يفارقني يوماً صوت أنفاس جنى، كانت كعادتها جميلة وكنت طفلاً يحمل ما لا يقدر أن يفهم فحواه الكاملة، في كل مرة أستعيد كل ما مر بيني وبينها أقرؤه بطريقة جديدة وأحلل من وجهة نظر أخرى .

اتصال جنى أخذني إلى ما حدث وتكرر على عدد أيام الأسبوع حتى عودة أمها .

لم يعد شيئاً كما كان من قبل أصبحت أشعر أننا بتنا كياناً... بتنا روحاً واحدة، وأصبح عندي إدمان على أنفاسها .

أقفلت الهاتف وركضت عشرة شوارع ألتقيتها...

لم أفهم حديثها لم أفهم جسدها لم أفهم لكن ما جعلني أشعر ببعض السكينة أن سرنا بقي مختبئاً في سرير جنى، طلبت مني أن أرحل كيف أرحل قالتها وكأنها تريد أن تطلق رصاصة في رأسي لتتأكد أني لن أعود.

ذهلت تماماً بالطريقة التي تتوالى وتتغير فيها الأحداث والأمور، فالبارحة فقط قطعت لي وعداً أن نبقى سوياً في الحياة وفي الممات... خارت قواي وغص لعابي عند حنجرتي. أشعلت سيجارة فبدا طعمها لاذعاً ناشفاً ورائحتها أقوى.

جلست إلى جانب الطريق أحاول أن ألملم ذاتي، وأن أفهم شيئاً من الذي قالته، ولوهلة لم أصدق أن أحداً لم يعرف شيئاً لكنني مضيت مع ضياعي هذا عشرة شوارع طويلة ثقيلة إلى غرفتي .

بمن عساي أتصل لطالما أبقينا أسرارنا مخبأة بيننا وحسب

فقط. عدت إلى بيتي متهادي الخطا، لم أكن أفكر كنت أمشي أبحث عن ملاذ أبحث عن غطاء.

دخلت إلى غرفتي بصمت شديد كنت أنظر إلى الهاتف وكأنني كنت في غيبوبة لحظة لقائها، وأنني على موعد مع اتصالها... لم تتصل ولم أخرج من غرفتي، بقيت فيها لأيام حتى عادت تعليقات أبي الساخرة.

ماذا دهاك علك تدخن الحشيشة، هل تختبئ من فعلة ما؟

علّي اختبئ.

حتى أمي لم ترحم ضعفي هذا وكانت تناديني في كل وقت تراه مناسباً، أو أنها كانت تحاول فهم ما يجول بداخلي، جلست إلى جانبي لأكثر من مرة وفي كل مرة كانت تزداد ملامحها غرابة بعد أن يعجز الحديث عن شق طريقه بيننا.

بدا كل شيء جافاً من حولي وبدأت أشتاق صوت جنى... طالما كنت نرجسياً، كانت في بالي منذ جنى كلمة ثورة... لقد ثرت على مدرستي وعلى قاسم وعلى صاحب المطعم، طرقت رأس الشاب الذي شتمني بعد أسبوعين من عملي الشاق في نقل القماش من المستودع إلى المقص وبالعكس، وذهبت دون أجري، فضلت عنفواني على ماله، بقيت عامين في ثورة على نفسي .

بت عدائياً أكثر من قبل أردت أن أنضج أردت أن أصبح رجلاً... أردت أن أحصد الاحترام بأسرع طريقة...

لم تكن الحقيقة بعيدة عني، لقد رأيتها تودعه منذ أسبوعين أمام منزلها ورأيته يلتقيها أمام معهد الموسيقى وألقى علي التحية... يا لوقاحته!

عندما سألتها عنه قالت إنه ابن خالتها وعائد من سفر وأنه بمثابة أخ كبير غادر منذ ثلاث سنوات... كيف لي أن أعلم! يركن الآن سيارته الفارهة أمام منزلها كل يوم يقف لعدة ساعات، ثم يخرج... ترى هل ذاق طعم جنى! بت الآن بين نارين فالصورة واضحة كعين الشمس، إن عادت فهي لم تعد جنى... وأنا الآن أشعر بالوحدة على كل الأحوال ومن جديد هنالك ثورة من طعم آخر هذه المرة، التحدي الأكبر أن أواجه نفسي وجنى وأن أرحل عن هذه المدينة المليئة بالازدراء والتنمر والأحكام الاجتماعية، لا أملك صديقاً ولا رفيقاً كنت دائماً أسبح في عالم جنى، لقد حسمت أمري، عليّ أن أرحل، علّ الرحيل يبقيني على قيد الحب والحياة .

ولكن! لا مال لدي... لم ألتحق بجامعة... لا أملك الكثير من الخيارات، علي أن أعود أولاً لأقف على محطة بيع المحروقات لربما كانت أشهراً أو عاماً كاملاً على نفس المحطة .

كان اتصالي بخالد صاحب المحطة أثقل علي من اتصال جنى .

مرحباً خالد

قلت لك أنك ستعود

نعم أريد أن أعود أحتاج بعض المال

قابلني غداً عند التاسعة .

مشيت إليه وكنت أشعر في هذا الصباح أن وجهي تلقائياً يقاوم برده، لا أشعر بشيء، كان طريقي إليه صعب المذاق، رأيته واقفاً كعادته في نفس الزاوية ويرتدي نفس المعطف الجلدي الذي كان يخفي تحته مسدساً... وسروال جينز وقد شرب من الزيت ما لا يمكن إزالته، حذاؤه الرياضي الواسع وشعره الأحمر الأشعث ولحيته الفارغة في عدة أماكن فيها بعض الشيب لكنه يصر على إرخائها.

تقدمت إليه وبدا على وجهه ابتسامة المنتصر، طالما أرادني أن أعود بهذه الطريقة، كان دائماً يقول لي إن وزنك بحجم مالك وأنا كنت أرى وزني بحجم حلمي...

لم نتحادث فقط، قال لي ستبدأ في الصباح وعليك أيضاً بتنظيف مستودع الزيت بشكل يومي وبنفس الأجرة قلت:

لكن

لا يوجد لكن... هذا ما لدي

كنت أتمنى لو أنني أملك خياراً كي أبرحه ضرباً وأرحل دون عودة.

كانت المحطة على مسافة قريبة من بيت جنى في وسط مدينتنا، وكنت أراه في طريق ذهابي وعودتي، في بعض المرات عند المساء كنت

أرى سيارة فارهة على باب منزلها ورأيتها في يوم ما بعد حوالي الشهر والنصف تنزل منها تودعه بابتسامة مصطنعة وتدخل إلى بيتها، توقفت لوهلة كنت على وشك أن أناديها، فكرت باقتحام المنزل وصب جام غضبي عليها... كيف استطاعت تركي لخالد ولسكان هذه المدينة، لم أكن أحب أحداً منهم، كلهم بارعون في الكذب، كلهم يصطنعون السعادة ويتمتعون بميزة الغيرة من بعضهم، كل شخص في هذا المكان يأتي على سيرة الآخرين وكأنه الأفضل، لا أريد فهمهم... باختصار أريد أن أرحل.

مضى وقت قصير ولم أعد أعلم شيئاً عنها ولم أعد ألحظ وجود ابن خالتها المفترض الذي عرفت لاحقاً أنه طبيب.

كيف لشاب وقد بدأ عامه الثاني والثلاثين أن يعجب بفتاة لم تدخل العشرينيات بعد، ماذا عساها تفعل بأعوامها التسعة عشر غير أن تسرق الحب معي وتثرثر مع صديقاتها عن مطعم جديد وعن آخر صيحات الموضة التي سمع بها مجتمعنا مؤخراً.

الحياة هنا تحت الرقابة، لا يوجد شيء ليس عليه الكثير والكثير جداً من الآراء والانتقادات، لقد سمعتهم ينتقدون الأنبياء في بعض الأحاديث كيف لا يشتمون وكيف لا يرون أنفسهم الأفضل دائماً

والأكثر حنكة، أشعر دائما أننا في مباراة طويلة في الحنكة في هذه المدينة.

بدأت أمقت هذا الطبيب دون معرفته... يا له من أحمق أيعجب بفتاة تصغره بثلاثة عشر عاماً. كم هو مريض!

كانت الأفكار ذاهبة بي وآتية وكنت دائم الغضب والعزلة وهكذا مضيت حتى أيلول .

في نهاية أيلول وعند العاشرة مساء نادتني أمي:

كريم هناك أحد على الهاتف يقول إنه طبيب يريد محادثتك على عجل وكأنه يحمل خبراً.

رفعت السماعة

ألو

إنها جنى! إنه صوتها قالت حبيبي... لم تناديني كريم، كنت مذهولاً تماماً كيف له أن يطلبني وأحادث جنى، قالت لي:

اسمع

وكان صوتها بالكاد يخرج من صدرها، وكانت تلهث أحسست أنها شاحبة.

ليس هنالك المزيد من الوقت تعال حالاً

إلى أين

إلى المشفى

هل أنت بخير؟

لا لست بخير ... أسرع ليس لدينا وقت

خرجت مسرعاً ولم أغير شيئاً من حلتي، فقط وضعت قليلاً من العطر الذي تحبه، كنت أشعر أنني أسابق الوقت أفكر ماذا بها، لماذا عليها تواعد طبيباً وعندما تمرض تكلمني !

كريم تعال... لا أستطيع أن أصف شعوري يا لحماقة البشر لماذا طلبني على الهاتف يا لوقاحته مجدداً !

وصلت... ركضت مسرعاً إلى الاستعلامات حددوا لي رقم الغرفة 109 إنها العناية المركزة رأيت أمها في الرواق وابن خالتها الطبيب.

أمها تبكي... لم أفهم! أين جنى؟

اقترب الطبيب وقال لي أدع لها أن تكون في جنان الخلد... دفعته بعيداً عني وركضت نحو الغرفة، وأنا في نفس اللحظات أحاول تحليل كل ما سبق، وعند وصولي باب الغرفة جلست في وضع

القرفصاء وكأن أثقال العالم فجأة نزلت على كتفي، وضعت يدي على وجهي، كنت أسمع الدم ينبض في جانب رأسي الأيسر.

لم يكن يواعدها... وقفت ثم جلست لم أستطع أن أسأله ماذا حل بها، كيف ماتت، لماذا جنى ولماذا أنا الذي الله اختاره ليحب جنى؟!

نظرت في وجه أمها، لم أستطع أن أخمن حجم الحزن في ملامحها، بادلتني النظرة ذاتها مشيت إليها وعانقتها ثم بكيت كطفل صغير... لم أر أباها يوماً...

دخلت غرفتها، كانت قد نقلت منها، بحثت عنها لم يسمحوا لي بالنظر إليها.

بقينا هناك حتى الخامسة صباحاً

كان رأسي طول الوقت فارغاً تماماً، كنت أستطيع أن أسمع صريره الذي كاد يخنقني، لا أعرف أين مشينا وكيف وصلنا إلى المدافن، لم أكن على أدنى دراية بما يدور حولي، كان كالهذيان وعشت تلك الأوقات كمن يعيش حلماً ما بين اليقظة والغفوة .

وفي صبيحة اليوم الثالث جلست إلى جانب أبي وكانت أمي تعد لنا سندويشات جبنة الماعز كالعادة، وعلى وسط الطاولة هنالك

إبريق الشاي المصنوع من الزجاج المقاوم للحرارة، كنت أرقب أوراق الشاي تتقلب بداخله وأرى فقاعات الماء تدور حول نفسها، كنت أشعر أنني جزء منه وأنني أتفاعل معها وأن إبريق الشاي هذا يعني الكثير... لم أفكر بشيء أكثر، ولأول مرة في حضور أبي أشعلت سيجارة من صنع يدوي، صبت أمي الشاي، كنت أراقبه أيضاً داخل فنجاني الزجاجي الشفاف والذي رسم عليه وجه مبتسم، بدأت ألفّ الفنجان بشكل دائري ببطء شديد وكان هناك الكثير من الصمت والأسئلة.

جاء صوت أبي:

كنت أعرف من هي جنى... وعلاقتي ليست بسيئة بعائلتها وكنت على علم بأنها مريضة، وأنه تم تشخيص المرض في مراحله المتقدمة، وأن العلاج كان من المستحيل أن يأتي بنتيجة، عندما حادثت أمك على الهاتف (رمقت أمي بغضب) طلبت منها أن تبقيه سراً عنك وهي أرادت أن تخبرك بموتها أو بنجاتها بعد انتهاء هذه المرحلة، ولكنها لم تنجح باجتيازها أو لعلها اجتازتها بأفضل طريقة ممكنة ... قدر الله وما شاء فعل.

لم أنبس بكلمة واحدة، ولماذا لا يسمحون لي أن أعيش محنتي كاملة وإياها !

دخلت غرفتي، أحسست أنها سجن يشبه مرقد جنى، بقيت فيها لأيام...

بدت ألوان الحيطان داكنة أكثر، ولون السرير الأصفر قد شحب، اختبأت تحت غطائي وبكيت حتى خارت قواي تماماً، وبعد منتصف الليل ركضت عشر شوارع إلى منزلها، وعند وصولي ثقل حزني فدخلته، كانت أمها جالسة على الأريكة المقابلة للمدخل، لم أطرق الباب، تبادلنا نظرات لا أستطيع وصفها، مشيت ببطء إلى الأريكة المجاورة، جلست بصمت لا أعرف كم مضى من الوقت على هذا الصمت.

نظرت إلى مكتب أبيها المطل على غرفة الاستقبال كان يجلس بصمت على طاولته ويبدو عليه من التعب ما لا يمكن له حمله... مشيت إليه واقتربت منه أخذت بيده وشددتها ...

جاء صوت أمها من الخارج... كريم تأخر الوقت ...

فرغ رأسي تماماً ومشيت بصمت إلى الخارج... كانت تقصد أن تقول إنهم لا يرغبون بي بينهم. هذه طريقة أخرى للهرب من حزنهم

أمها لاحقاً تحولت إلى شخص صامت ومنطوٍ ولم أسمع عنها شيئاً منذ سافرت في رحلتي الأولى... أما والدها الذي توفاه الله بعد عدة

أعوام فراسلته مرة ورد لي الرسالة بأخرى بعد عدة أشهر من وصولي إلى امستلفين .

وبعد حوالي الأسبوعين جاء أبي... ناداني بلطف غير مسبوق

كنت قد حادثته عن نيتي بالسفر ولطالما كانت رغبتي طيلة العام الذي مضى...

قبل رحيل جنى لم يكن يأخذ كلامي على محمل الحقيقة...

وبدأنا في دوامة الأوراق المطلوبة للحصول على تأشيرة سياحية، وبعد قرابة شهر ونصف كانت رحلتي الأولى إلى مطار سخيبول في هولندا.

هنا وعلى هذه الطاولة القديمة اليوم أودعت ركناً من ذاكرتي... رتبت أوراقي بعناية شديدة كوداع يليق بما مضى... وإنني حتى اليوم غاضب من نفسي، ومنها ومن الأيام التي مضت في معاناتها الأخيرة دون أن يسمحوا لي بأن أكون بجانبها... أو أن أعيش محنتي معها.

وهناك بعد ما حدث بدأت رحلتي الجديدة نحو كريم جديد يكاد أن يولد بمخاض صعب آخر.

3

سلام وعلى قلبي سلامْ...

ستوكهولم... السادسة مساءً على بعد 4700 كم وثمانية أشهر من مدينتي وفراق جنى...

أخذت النقود منه وضعتها بحقيبتي وكأنني معتاد على حمل المبالغ الكبيرة، مشيت بثقة وارتياح، ركبت سيارة الفولفو مع إيريك- مورد الفلاتر- وكان الطريق طويلاً وصامتاً في العودة إلى هولندا... وصلنا عند التاسعة صباحاً دخلت إلى المتجر وكأنني خرجت الأمس منه لأكمل عملي كنت أتكلم القليل من الهولندية وأستعين بالإنكليزية، لكن سلام كانت على استعداد دائم لمساعدتي، أفرغت حقيبتي بين

يديها، أعطتني رزمة من المال كان كثيراً على جيبي الذي تعود الفقر وصرف ميراث أبيه لكي يهرب من مدينة بائسة إلى أخرى لا يعرف منها سوى الثلوج والشوارع المنظمة وسلام وصاحب المتجر المتعدد الاختصاصات إدوارد...

عدت إلى غرفتي على سطح المتجر وضعت المال على الطاولة خلعت معطفي الذي كان عابقاً برائحة السجائر ... رميته على الكرسي ورميت علبة السجائر والولاعة على الطاولة، فككت حزامي وخلعت حذائي ورميته بقدمي إلى جانب الباب أحسست أن جواربي دخلت في لحم قدمي كنت منهكاً، أحسست أنني على وشك أن أغفو على الكرسي حتى أنني فعلاً بدأت بسكرة أول النوم .

دخلت سلام من الباب دون طرقه، كان مشقوقاً على أي حال، جلست خلفي على السرير كنت أشعر بأنوثتها خلفي ولم أشعر بها بنفس الوقت .

أشعلت سيجارة ثم وقفت أمامي مباشرة، نظرت إليها من رأسها حتى قدميها... شعر أشقر، عينان زرقاوان فيهما الكثير من الجرأة والحياة، وجه يشبه اكتمال القمر كتفان متناسقان، متوسطة الحجم، تلبس قميصاً أخضر مورّداً بورود زهرية تربطه عند سرتها وتحته قميص داخلي أبيض وعلى خصرها بكلة من القماش تحمل

تنورتها الكحلية الموردة وتحتهما جراب طويل، كانت تهز ساقها اليمنى ويدها اليسرى على الطاولة، كنت في شبه غيبوبة من التعب.

أمسكت رزمة المال وقالت لي:

هذا كثير على مواطن ليحصل عليه بتوصيلة واحدة خلال عدة أيام، فما بالك بمهاجر لم يتخط السنة... ولا يتكلم سوى القليل من اللغة المحلية، اسمع... عليك أن تفهم أين أنت الآن، إنني في مثل سنك لكننا نخوض هذه التجارة منذ ولدنا أنت الآن على مشارف الثروة ... لا أعلم ما الذي جعل إدوارد يثق بك إلى هذا الحد، إنه لا يجلب عميلاً جديداً إلا بعد فحصه جيداً أنت دائماً متجهم ولا تنطق الكثير، تبحث عن مكان لتأكل وتنام وتحلم بأن تكمل دراستك إلى أين عساك ظننت نفسك آتياً...

اذهب إلى فراشك... ألقاك عند الثامنة بعد إغلاق المتجر.

غصت في نوم عميق، استيقظت عند السابعة أخذت حماماً ساخناً، بدأت أفكر أثناءه بجنى...وامستلفين... جاء على مرآي ولوهلة جسر على نهر امستل وتحته قارب خشبي أحمر ... وتذكرت دكان قاسم .

خرجت والتقيت سلام على باب المتجر من الجهة السكنية، كان الجو بارداً.

كانت ترتدي ثياباً سميكة مشينا إلى منزلها، أدخلتني إلى غرفة الاستقبال أشعلت سيجارة وصبت لنا الشاي الساخن وجلسنا نتحدث.

كانت سلام ابنة لعائلة عربية تقليدية لديها أخٌ صغيرٌ في الثامنة وهي تصغرني بعام، والدها كان تاجراً مثل إدوارد اسمه سعيد ومعروف بسام، أمها متابعة مخلصة لصيحات الموضة، لم أتعجب من أناقتها عندما عرفت أن والدها سام يملك معرضاً لتجارة السيارات الفارهة، وبنفس الوقت تاجر أصيل في القنّب... هي سلعة رائجة وتوفر المال الكثير هنا.

لم أخف منه، ولكنني شعرت بالكثير من الغرابة عندما ناداني وأنا أغسل إحدى السيارات وتحدث إلي قائلاً: انظر يا فتى إنك تعمل دون ترخيص، ومهدد بالترحيل في حال اكتشافك أما أنا فبعلاقاتي الوثيقة هنا، وبحزمة من المال أضمن بقائي.

شردت قليلاً لماذا علة يضعنا على محك المقارنة... ثري يحمل جواز سفر أجنبي محترم وفقير يبحث عن ذاته هارباً من مدينة وفتاة.

عندي لك عرض واحد وخيار واحد علك تأخده وتبقى أو أن تختفي من هذه القارة تماماً.

أشعل سيجارته وارتشف النسكافيه.

اتكأ على الأريكة القماشية ذات اللون العاجي، وضع يده اليمنى على ظهر الأريكة واليسرى على مركاها، نظر إلي وكأنه ينظر إلى الأسفل، كيف عساه أن يكون بهذه الطاقة والنشاط وهو يدير تجارتين كبيرتين إحداهما واجهة والثانية مدرار مال وفير جداً .

أحسست أمام هذا الرجل أنني صغير جداً بحجم حبة رمل وأنه يستطيع أن ينقلني أينما شاء وكيفما شاء دون تكبد أي عناء يذكر.

اسمع يا فتى إننا نقوم هنا بتجارتين، أقوم ببيع السيارات الفارهة وأمرر شحنات من القنب إلى البلدان المجاورة.

نظر إلي وكأنه ينبهني مسبقاً (أنا أمررها فقط...)

وهنالك من يهتم بها في الناحية الأخرى لقد كنت مثلك تماماً تائهاً صغيراً وفقيراً ولم أجد من يمنحني فرصة ذهبية كهذه... سوف تبدأ بدراستك الجامعية وتسكن في شقة قريبة وتقود سيارة جيدة الأداء، ولن تضطر إلى العمل لعشر ساعات في تلميع السيارات هنالك الكثير من أبناء الجاليات الأخرى على أهبه الاستعداد

لتلميعها وبقدر أقل بكثير من المال، عليك أن تختار إما توصيل القنب أو سأضطر إلى التحدث إلى أحدهم وأنه سيضمن لي رحيلك عن هذا البلد .

لم أدرس خياراتي أبداً... وافقت فقط.

جامعة... سيارة ومال، لماذا على الشباب أن تهاجر!

كانت ستوكهولم أول محطاتي مع هذا الفتى الذي يكبرني بعدة أعوام والذي يسمى مورد الفلاتر، كان عليّ أن أتعلم كيف أجد طريقي بين المدن الأوروبية وكنت حسب ما فهمت أعمل بربع أجر إلى أن أستطيع التوريد دون مساعدة.

نظرت إليّ سلام بعينيها الزرقاوين وابتسمت ابتسامة لطيفة .

أين ذهبت بأفكارك يا فتى! هل تعلم أنك على وشك أن تكون مهاجراً شرعياً! لقد تدبر سام أمر أوراقك فهو محنك في التلفيق المنظّم ومن الصعب جداً بل من المستحيل ألا تكون قد مرت على كل الدوائر الرسمية وقاموا بالمقابلات عنك، إنه المال أيها الطموح، عليك أن تبدأ اليوم، أولاً ستبدأ دورات في اللغة وبشكل مكثف وعليك أن تتقن اللكنة المحلية للمدينة، يجب أن تظهر بمظهر الامستلفيني العام المعروف.

كلفني هذا ما يقارب الثمانية عشر شهراً، كنت أجني المال القليل بنظرهم والكثير بل الكثير جداً بنظري، إنه ما يقارب الـ 3000 يورو شهرياً لا ضرائب ولا أوراق ولا حسابات بنكية.

كنت قد مررت ما يقارب الثمانية آلاف يورو لوالدي، الذي بدأ يحدّث الجميع عن ابنه الناجح، كنت أستطيع أن أتخيل وجهه وهو يبتسم محدثاً رفاقه... كريم بدأ يدرس الكيمياء إنه شاب ناجح يعمل بنصف دوام وينتج أكثر منّا جميعاً، لقد تدبر أمر أوراق إقامته وهو اليوم مواطن هولندي يتحدث لغتهم بطلاقة...

لقد اعتاد مورد الفلاتر المناوبة على النوادي الليلية وبشكل منتظم مع صديقته الجميلة المغربية، واعتاد على البقاء في أنحاء امستلفين وأمستردام حتى الصباح وعادة ما كان يبقى خارج المنزل.

في مساء يوم الأحد الذي تلا توصيلة إلى مدينة مونس البلجيكية على الحدود الفرنسية، وكانت رحلة ذات وقت طيب... ذاك المساء تلقيت اتصالاً من سلام

كريم قابلني حالاً في مكتب سام

بدا صوتها مرتبكاً... وصلت إليهم وأنا أحمل الكثير من الطمأنينة، لقد جعلوني أعتاد الأمان منهم، كنت بالنسبة لهم كقط وفي وقد درب بشكل كاف حتى يألف المكان والأشخاص.

حييتهم وجلست كالعادة على طاولة الاستقبال مقابلاً لمكتب سام، كان سام ينظر إلى الطاولة وعيناه تلمعان بطريقة مربكة، سحب سيجارة أشعلها بولاعة كوهيبا، قالت سلام :

لقد توفي المورد هذا الصباح

من... أيريك؟

نعم، قالت سلام ولم تبد أي تعبير يذكر

لقد كان ولداً ثرثاراً، قال سام

لكن كيف مات !

جرعة زائدة

لكنه لم يجربها يوماً

عقد حاجبيه ونظر إلي نظرة المؤنب لقطّه المطيع

وعندما جربها مات... مات مخنوقاً بها...

وقف سام ومشى باتجاه النافذة الزجاجية الكبيرة المطلة على شجرة ورصيف وشارع وجزء من معرضه الضخم.

أخذ يتكتك بأصابعه على حافة الألمنيوم وقال لي :

اسمع كريم لقد استثمرنا بك من الوقت ما يكفي وأنت اليوم بت معروفاً عند زبائننا، وأنا على ثقة بأنك ستمتنع عن الثرثرة أو عن

تجربة كتجربة إيريك، لقد تضاعف أجرك إلى ثلاث مرات سوف أنقل فلاتر إيريك إلى شاحنتك الجديدة.

كنت مرتبكاً تماماً وأُطمئن نفسي... لا شيء لأخشاه لدي كرت إقامة، وأنا طالب جامعي بجامعة عريقة، توضع النقود في حسابي البنكي، من بلدي الأم على شكل حوالات منتظمة أو أنه يضع جزءاً منه.

كانت وجهتي الأولى إلى ميتز في فرنسا كانت الرحلة طويلة وممتعة، توقفت في محطتي الأولى عند نزل من الدرجة الثانية، هو في متناول طالب يستلم المال من أبيه الثري على حساب بنكي بانتظام، وتابعت حتى نامور البلجيكية ومنها إلى ميتز، كان هناك عجوز في الستينات ينتظرني، أنزلت الحمولة في دكان قطع الغيار خاصته، نقلها إلى المستودع، ورحلت كضيف خفيف الظل.

لا أسئلة هنا ولا أجوبة، لا تهكمات ولا ابتسامات تخفي تحليلات ولا يهمني ماذا تخفي خبايا نفس هذا العجوز... رحلت فقط.

بقيت في نفس المكان لثلاث ليال، شارع سبورتلات في امستلفين وبقيت في مدينة أخرى خارج الحدود ...

زرت شتوتغارت الألمانية ومونز في بلجيكا. كنت قد طفت بلدي الجديد هولندا ذهاباً وإياباً .

أملك المال الوفير، كان علي القيام بشيء ما، استمريت في دراسة الكيمياء سنة أخرى حتى تخرجت على الأقل كانت هذه الشهادة صحيحة تماماً، وبدأت في رسالة الماجستير حتى أنهيتها ومع اكتمال عامي السابع صرت كيميائياً شاباً ثرياً على المقياس العربي وبعض الغرب، تقدمت على طلب الجنسية وكانت سهلة جداً بمساعدة سام .

كانت الحياة تبتسم بسلام كوجهها الأنثوي العربي الذي لا يمكن أن أفرقه عن أهل المدينة.

بعد يومين من هذا اللقاء الذي كان بالنسبة لي الأمل الوحيد في نقطة البداية لم يرد اتصال.

عندما وصلت امستلفين بالصدفة للمرة الأولى كنت أمشي بغير هدى، لقد حصلت على تأشيرة لزيارة هولندا وكنت أملك من الوقت ما يقارب الثلاثة أشهر قبل أن يتوجب علي الرحيل، نزلت مع مجموعة سياحية في مدينة هارلم، وكان من المفترض أن نبقى فيها لمدة يومين ومن ثم ننتقل إلى أمستردام وبعدها ننهي الرحلة في روتردام ومن ثم نعود الى مدينتنا البائسة بعد مضي أسبوع.

كانت نصيحة خالد أن ألتحق بالمجموعات السياحية هي طريقة مضمونة للوصول الى أوروبا ظننت أنه يراوغني كالعادة لكنه لربما أراد التخلص مني بشكل نهائي، أو علّه أصيب بصحوة ضمير على رغم خلافه معي، لم أفهم خالداً، لكنني أردت المضي...

وعند وصولنا الى أمستردام قرأت خريطة المكان وقررت أن أختبئ في نزل في مدينة امستلفين هنا لن يبحثوا عني فهي قريبة جداً على أمستردام .

بقيت في النزل لأسبوع كامل، كنت أكتشف المكان مشياً على الأقدام يومياً منذ الصباح حتى المساء أبحث عن المطاعم والمقاهي والمتاجر الكبيرة علي أجد طريقة للعمل هنا على الأقل ريثما أجد حلاً لمعضلة الإقامة، فكرت أن أكون لاجئاً فهم يدعمون المسيحيين بحال احتاجوا مساعدة ما...

في اليوم السادس على زيارتي، دخلت إلى متجر كبير كنت مذهولاً تماماً، كل شيء هنا منظم بطريقة لا أستطيع فهمها، إنه نظيف جداً وفيه قلة من المتسوقين في وقت الظهيرة...

كانت هنالك فتاة لاحظتها قبل دخولي المتجر تقف قريباً من رفوف علب السجائر بدأت أقترب كنت غريباً وخائفاً وأتكلم بعض

الإنكليزية كانت تنظر إلي بطرف عينها وعلى خدها خصلة من شعرها وتتظاهر كأنها تقوم بترتيب العلب. أحسست برغبة بمحادثتها بدأت أستجمع مخزون كلماتي الإنكليزية:

مساء الخير

مساء الخير

أنت تعملين هنا؟

لم أفهم كل ما قالته لي لكنني فهمت أنها موظفة في المتجر

كيف لي أن أساعدك؟

كنت أريد أن أشرح لها كل ما بداخلي علها تساعدني ولو حتى استمعت أو أدلت بنصيحة .

أردت أن أقول لها إنني أبحث عن أمان بعيداً عن مدينتي وهويتي...

تلعثمت، فنطقت متذمراً بالعربية... نظرت إلي بطريقة غريبة وسألتني بالعربية:

من أين جئت؟

أحسست بسعادة تغمرني وبدأت أقص لها ما بداخلي حرفياً، كنت أخاف أن تستدعي الشرطة أو تتصل بمصلحة الهجرة، وبعد أن قصصت لها ما بداخلي طلبت مني أن أنتظر

دخلت إلى مكتب زجاجي وبدأت مكالمة هاتفية...

ثم خرجت إلي وأعطتني الهاتف النقال وقالت لي إنه أبي، كلمه بالعربية. أخذت الهاتف: ألو!

اخرج من المتجر وسر يميناً لمسافة مئتي متر سترى على يمينك مطعماً، وقبالة المطعم في الجهة الثانية من الشارع سترى معرضاً للسيارات، ادخل المعرض وستراني أنتظرك في المكتب المتوسط للمبنى .

أنهى المكالمة، شكرت الفتاة وقلت لها وأنا أصافحها.

كريم.

أبدت ابتسامة مفعمة بالترحيب.

سلام.

خرجت من المبنى ومشيت كما طلب مني والد سلام، كنت أفكر ماذا يا ترى سأجد في معرض السيارات !

كان يوماً صيفياً في امستلفين، السماء ملبدة كالعادة وهنالك نسمة بحرية باردة، وأخرى لا أعرف مصدرها .

دخلت إلى المعرض وسرت باتجاه المكتب، طرقت الباب ودخلت، كان على خط هاتفي آخر يتكلم بلغة أخرى، ابتسم لي وأشار بيده

اليمنى إلي بالجلوس... كان يرتدي قميصاً أبيضاً مصنوعة من قماش فاخر وبيده طوق فضي وخاتم عريض، وباليسرى يلبس خاتم زواج... شعره أبيض فيه بعض السواد وعيناه تعكسان راحة وثقة.

جلست على الأريكة المقابلة له ونظرت إلى جوانب مكتبه الزجاجي الفاخر، أغلق السماعة ومشي إلي وصافحني وقال:

سعيد... يمكنك أن تناديني سام .

أهلا سيد سعيد أو سام... أنا كريم لقد حدثتك الفتاة في المتجر عني .

أجلس كريم ماذا أتى بك إلى هنا عليك أن تصارحني بكل الحقيقة علّي أستطيع المساعدة .

استغرق مني ما يقارب الساعة حتى شرحت له الأمر... صمت لوهلة... فكرت عله يدبر لي أمراً ما... قال لي: كم من المال لديك لتبقى في النزل؟

أستطيع البقاء لأسبوع آخر... لم آت إليك بحثاً عن مساعدة مادية... أريد عملاً ومكاناً للإقامة وسوف أسدد تكاليف إقامتي .

خرجت من مكتب سام، مشيت باتجاه المتجر عودة خطر لي أن أكلم سلام، في هذه اللحظة كنت أفكر بفتاة جميلة فقط، لم أفكر أبعد من ذلك أبداً .

دخلت إلى المتجر بحثت عنها، لم تكن موجودة انتظرتها قليلاً، وعندما لمحتها تركن سيارة مرسيدس كومبريسور حمراء، نزلت إليها كانت تمشي بثقة وبيدها هناك مصنف أحمر وباليد الأخرى كانت تحمل مفتاح السيارة، وشعرها كان يتطاير مع مشيتها الواثقة.

استجمعت نفسي ونزلت إلى باب المتجر، التفتت إلي وابتسمت قالت: سأعود حالاً.

وقفت كتائه في هذا الكراج وأحسست أنني غبي متطفل وأنها ثرية جداً وجميلة جداً وهي ابنة سام صاحب نصف المتجر وصاحب معرض سيارات فارهة .

مشيت تجاه سيارتها ذات الفرش الداخلي بلون بني... اتكأت عليها وبدأت أعد حصى الأرضية، حاولت استكشاف المكان، عادت الفتاة مبتسمة ونادت:

كريم

مشيت تجاهها... قلت لها

لم أرد أن أكون متطفلاً أنا أعتذر

قاطعتني

لا عليك أبي جاء إلى هنا مثلك تماماً، ولكنه بطريقة ما أصبح على ما هو عليه اليوم، إنه يملك نُزلاً أيضاً في نهاية الشارع ولديه الكثير من الاستثمارات العقارية في مدن مجاورة، وهو أيضاً صاحب محلين في وسط مدينة أمستردام، لقد كلمني عندما خرجت من مكتبه وقال لي إنه يبدو عليك اللطف والأدب والحاجة الملّحة لمخرج ما، على كل لا عليك دعني أوصلك إلى وجهتك وأنا متأكدة أنه سيحادثك قريباً.

أومأت إلي بالصعود إلى السيارة وقالت بلطف شديد:

تفضل.

كانت تنظر إلي بطرف عينها وكانت ساحرة الجمال في هذه اللحظة، صعدنا في السيارة وجلست مرتبكاً أحاول أن أفتح حديثاً ما، كان الارتباك ظاهراً على جسدي وكانت قدمي اليسرى ترتجف بطريقة ما دون سبب... شعرت سلام بخطبي، شغلت المحرك وسألتني:

هل تعرف اسم الشارع؟

أعطيتها اسم النزل واتجهت مباشرة إليه، كانت المسافة قصيرة جداً ولكن أحسست أنه الكثير بل الكثير جداً من الوقت حتى وصلنا، كنت أختلس النظر إلى حمرتها اللامعة بلون وردي لطيف،

كانت تبدو بمثل عمري أو ربما يفرقنا سنة أو اثنتين، أرى رموشها الطويلة وأرى من خلالهم باقي التفاصيل، يالحمقي! أتريد الفتاة أم المساعدة يا كريم، كنت أحث نفسي طوال الوقت على التصرف بنضج، وأنه يتوجب عليّ أن أكون شديد اللطف والأدب مع صبية قد لا تتكرر، وقفت هنا بين خيارين هل على أن أكون ثورياً وأقترب منها! أم أنه على أن أبقى بحدود الأدب في عرفنا العربي، هل كانت ستظن أنني عربي شهواني وقح أم أنها كانت ستفهم من أنا وكيف أفكر! دعني منها بحق الجحيم لدي الكثير هنا.

أعطتني ورقة قد كتبت عليها رقم هاتفها الخاص.

توقفت عند باب الزوار، شكرتها ونزلت، أنزلت شباك الباب اليميني وقالت لي كلمني بأي وقت سأكون هنا للمساعدة.

شكرتها مرة أخرى واتجهت الى غرفتي، طلبت الاستعلامات وقلت لهم إنني أريد أن أجري محادثة هاتفية إلى الخارج وبتلعثم كبير باللغة والكثير من المجهود الذي كان على الفتاة في غرفة الاستعلامات أن تبذله حتى تشرح لي أنه باستطاعتي أن أشتري بطاقة لهاتفي النقال وستكون صالحة على حسب مدة إقامتي .

خرجت واشتريتها بعد نفس العناء لأشرح ما أريد أمام طاولة الاستقبال في مكتب شركة الاتصالات، كلمت أبي في طريق عودتي طلبت رقمنا الأرضي، رن الهاتف وجاء صوت

كاترين أختي الصغيرة:

- كريم اشتقت إليك

وصرخت

أمي أبي كريم على الهاتف

وبدأت تقول

لقد وجدت علبة صفراء في خزانتك هل لي بأخذها اسمع أريد ملصقاتك الكرتونية القديمة

كريم هل ستطيل السفر هل لي باستخدام الغرفة... اسمع لقد سألتني عنك ابنة الجيران من المنزل الخلفي أعتقد أنها تحبك.

وضحكت بصوت عالٍ... جاء صوت أبي

هات السّماعة أريد أن أقول له شيئاً

قالت لي أحبك جداً أتمنى أن تعود عما قريب.

وجاء صوت أبي :

كريم كيف حالك هل تأكل قل لي أين تقيم؟ هل سارَ كلُّ شيء على ما يرام؟ أمك تدعو لك ليل نهار، زارت كنيسة أمنا مريم البارحة وصلت لك من قلب طاهر .

قلت له اسمع... وقصصت عليه كل ما حدث .

قال لي :

سعيد هذا ابن عائلة معروفة في مدينتنا وعلى ما أظن أن أحد أقربائه يدير مستودعاً ونورّد له مواد أولية من الشركة التي أعمل بها، إنه رجل مسن سوف أسأله عن سعيد .

جاء صوت صافرة انتهاء المكالمة، لقد كلفتني الكثير، عدت إلى شركة الاتصالات عبأت بطاقتي وعدت إلى النزل، كنت أحسب المال المتبقي لدي وأفكر أنه يتوجب علي الانتقال إلى وجهةٍ أخرى، سمعت أنه في بلجيكا وفرنسا يُساعدون المهاجرين، طلبت القهوة وخرجت إلى البرندة جلست ما يُقارب الساعة عدت إلى الغرفة وكنت أنوي النزول، لبست حلة سبور شيك صيفية أنيقة، أمسكت هاتفي، لم يرد أي اتصال، لن يرد اتصال من أحد، لم أعطِ رقمي بعد لسلام أو سام، كتبت رسالة نصية وأرسلتها إلى رقم سلام " مساء الخير آنسة سلام هذا رقمي، كريم "

تركت هاتفي في غرفتي متصلاً بالشحن وخرجت إلى الشارع. كنت أرى البارات والمطاعم مكتظة بالناس، أصوات ضحكات خارجة منها وهنالك حشد كبير في كل مكان، أروقة نظيفة ومرتبة، كل شيء هنا يملك طابعه الخاص، حدائق صغيرة وأخرى كبيرة، محلات تجارية فخمة، الكثير من الفتيات الجميلات وشبان ارتسمت على أجسادهم وشوم مختلفة وبأشكال وأحجام مختلفة، كنت على يقين أنني أبدو الغريب الوحيد من هيئتي ومن مشيتي وتعابير وجهي، شعرت بأنني صغير جداً وتائه جداً.

عدت إلى غرفتي وتفقدت هاتفي، وجدت عليه ثلاث مكالمات فائتة، لم يكن رقم سلام، تأكدت أنه ليس هو، طلبت الرقم، جاء صوت نسائي كنت واثقاً نوعاً ما أنه عربي وأنني أستطيع أن أحدثه:

مساء الخير

أهلاً كريم اسمي ماري أنا زوجة سام.

غمرتني سعادة مفرطة وكنت أحدثها بانتباه شديد جداً.

أهلا سيدتي شكراً على اتصالك اللطيف.

لا عليك هل لديك بعض الوقت غداً عند الحادية عشرة صباحاً.

طبعاً طبعاً.

اتجه إلى المتجر واسأل عن مكتب مدام ماري وقابلني هناك

حسناً.

إلى اللقاء.

وأغلقت السماعة، اتكأت الى السرير وقدماي تلامس الأرض مددت ظهري وكنت أراقب ديكور السقف في غرفتي، أحسست بالقليل من الارتياح والقليل من الارتباك، شعرت بأمل شديد، بقيت على هذه الحال لوهلة، ثم انتفضت، بدأت أمشي بجوانب غرفتي وأفكر باللقاء المنتظر في الغد، كيف علي أقدم نفسي، ماذا ألبس، سوف أشذب ذقني وأضع قليلاً من مصفف الشعر، علي أن أتصرف بلطف وثقة وأن أُبدي بعض التوازن أو أنه علي التصرف كرجل على دراية تامة بكل ما يحصل، لن أستعطفها لم أعتد ذلك، كيف عساها تقابلني، بدا على صوتها أنها متعجرفة أو أنها تريد أن تظهر لي مقدار راحتها وثروتها، علّها لم تكن تريد محادثتي ولكن ربما سام أو سلام أقنعوها، هكذا الأمهات والزوجات دائماً لا يردن غريباً عن العائلة، فهن يعشن بسلام على ما يبدو، لماذا علّها تقبل تطفلي !

تخيلتها امرأة في منتصف الأربعينيات ممتلئة وأنها ستلبس تنورة مطرزة وقميصاً صيفياً، وتسرح شعرها كالأمهات فكرت كثيراً، لم أنم

حقاً بضع ساعات، وها هي الساعة التاسعة بدأت بالاستعداد وانطلقت...

تقدمت من باب المتجر... ها هي سلام مشيت بعجل نحوها: صباح الخير.

نظرت إلي بابتسامة أحسست وكأن هزة أرضية قد حصلت للتو وأنني لجزء من الثانية كنت سأفقد توازني وأني أشعر بطعم ما على لساني.

صباح الخير كريم أمي بانتظارك.

صعدنا الدرج إلى الطابق الأخير.

دخلت سلام قبلي عبر الباب الزجاجي المطرز، دخلت خلفها، شعرت أن حزامي قد فلت، تظاهرت قدر المستطاع بالثقة وقفت مدام ماري قبّلت سلام ومدت يدها لمصافحتي، اتجهت مباشرة نحوها وحييتها: صباح الخير سيدة ماري، أنا كريم.

أهلاً كريم.

كانت تبدو كصبية في العشرينيات، أخذني عطرها الذي عرفت لاحقا أنه"dior"

أحسست أن يدها ذابت بين أصابعي وأنها كابنتها شديدة الأنوثة والجمال، كانت تلبس قميصاً أبيض وقد تركت زرها العلوي مفتوحاً لكنه لم يبد شيئاً من جسدها، وعلى رقبتها طوق لطيف وفيه نجمة بحر يبدو أنها ماسية، إنها جميلة جداً على أن تكون أما أو سيدة أعمال ترتدي سروالاً حريرياً أسود وحذاء نسائياً بكعب نصف عال وحمرة وردية كالتي تضعها سلام، عيناها زرقاوان، على طاولتها كان هناك فنجان قهوة وكمبيوتر محمول نوع Apple

تفضل بالجلوس لقد حدثني سام عنك وروى لي قصتك باختصار، أريد سماعها منك .

وقصصت عليها كل التفاصيل، بدأت تسألني عن عائلتي، أين هم، ماذا يعمل أبوك، أمك، أختك في أي شارع من المدينة تسكن، وذهبت حتى أدق التفاصيل...

بعد حديث استغرق قرابة الساعتين، وكثير من الأسئلة، سألتني عن جواز سفري، أعطيتها إياه، يا لغبائي، أأعطيه لغريبة دون اكتراث!، تباً... حصل ما حصل...

عرضت عليَّ أن أعمل عند سام براتب متواضع جداً فقبلت فوراً، قلت :

علي أن أبحث عن مكان كي أقيم فيه.

لا عليك تعال معي.

صعدنا إلى سطح المتجر، أدخلتني إلى استوديو سكني صغير وقالت: أعددنا هذا لموظفي المناوبة الليلية يمكنك أن تقيم فيه وسوف يكون مجانياً تماماً

عدنا إلى المكتب، كنت أتشكرهم طول الوقت، واعتذر منهم دون أسباب، عندما جلست خلف طاولتها قالت بلهجة صارمة بعيدة كل البعد عن امرأة جميلة ساحرة ثرية وتضع عطراً نسائياً بكل هذا الأثر.

اسمع أمامك شهر ونصف حتى تنتهي صلاحية تأشيرتك، وإنك وعلى شكل دائم في وضع مراقبة منا بكل تصرف قد تأتي به، يبدو عليك أنك شاب ذو تربية جيدة، لكن الوقت كفيل بالتفاصيل، يمكنك أن تبدأ غداً صباحاً، عد إلى النزل وأجلب متاعك .

بعد ثلاثة أشهر من العمل المنتظم في معرض سام للسيارات، أرسل جواز سفري إلى بلدي وقال لي :

علينا المضي ضمن القانون تماماً لكن ليس بالضرورة أن تخرج. اسمع يا فتى أنت على خلق عال هذا ما يجعلني دائماً مستعداً للمساعدة .

كانت سلام تتردد إلى المعرض وكنت أرى نفسي بعيداً كل البعد على أن أحظى بهذه الجميلة، كانت تساعدني في بعض أوقات فراغها بتعلم اللغة الهولندية والإنكليزية، وقالت لي إنه يتوجب علي إتقان الفرنسية أيضاً.

كنت أعتني بكل شيء داخل المعرض وأحاول أن أتعلم ما يقوم به سام، هنا بدأت ألحظ أن الشاب مورد الفلاتر يزورنا بانتظام كل أسبوع، وأننا لا نشتري منه شيئاً عله يقوم بعمل ما مع سام وما أدراني، جاءت سلام في ذلك المساء وجلست على غطاء محرك لسيارة نوع جاكوار لونها أخضر غامق، كانت تراقب كل تحركاتي دون كلام اقتربت منها، ابتسمت كعادتها، وضعت كعادتي، قلت لها دون تفكير :

تبدين جميلة جداً حين تبتسمين

ضحكت قليلاً وقالت :

حسناً... أنا فقط جميلة عندما ابتسم !... سأبتسم دائماً

لا .. لا لم أقصد

ضحكت مجدداً وقالت :

أعرف أنك لم تقصد وأنت أيضا شاب وسيم

بقيت طيلة الوقت حتى عدت إلى غرفتي، أستذكر صوتها... شاب وسيم... حركتها عندما قالتها كانت تعنيها، لربما كانت كلمة عادية وأنا أبني بداخلي فقط، ذلك المساء وقفت أمام مرآتي وفكرت، لماذا لا أكون وسيماً أنا حقاً على هذا القدر من الجاذبية، لقد أحسست بها منذ اليوم الأول الذي قادني قدري فيه إلى متجر أبيها وكانت سعاد بنت الجيران دائما تكرر هذه العبارة على مسمعي... وجنى... آه على جنى، حزنت قليلاً عندما تذكرت جنى...

أخذت حماماً ساخناً وجلست إلى سريري أدرس اللغة الهولندية حتى أخذني النوم.

بدأت علاقتي بسلام تأخذ منحىً كان يخيفني تدريجياً حتى بتُّ مقتنعاً أننا وإذا ما قررنا الاستسلام لهذا السرد الجميل فيما بيننا ستكون بالنسبة لي بداية النهاية في هذا المكان على الأخص وأن سام كان يعمل على إعادة إدخالي إلى أوروبا افتراضياً بطريقة نظامية جداً .

لا أعلم كيف استطاع أن يحصل لي على فيزا إقامة دون مقابلة شخصية في السفارة، كيف وضع ختم دخول اليونان على جواز

سفري ونهاية حجوزات طيران افتراضية، أخذت منه عاماً ونصف، لم أفسر السبب، لا يوجد أي دافع لسام يجعله يقوم بهكذا عرض سري على أوراقي حتى حصلت على الإقامة بعد عام ونصف العام، إنه بكل الأحوال وقت قياسي لطالب إقامة في أوروبا.

عند شهري الرابع في امستلفين كنت أراقب سلاماً بكل تحركاتها حتى أنني أصبحت على دراية بالأماكن التي تقوم بزيارتها، وعندما علمت أنها على وشك القيام بزيارة لمدة أسبوع كامل لأحد أقاربها في أوسلو أصابتني كآبة لم أفهمها وكنت أقضي كل وقتي بتلميع السيارات والتنقل في أرجاء شركة سام ودراسة اللغة الهولندية صعبة الفهم.

قبيل عودتها بيوم وعند دخولي إلى غرفة الاستوديو خاصتي، كلمتني سلام على الهاتف يا لجمال هذا المساء! إنه صوتها ينساب كماء في فم عطش، إنها الحياة تعود إلى كتفي من جديد، حادثتني على عجل وقالت إنها ستأتي بهدية من أوسلو وأنه علي أن أزور أوسلو يوماً ما، ثم قالت:

أنا على يقين أنك ستتجول في كل مدن أوروبا في حال كان سام يقرؤك بشكل صحيح .

لم أفهم ما الذي جعل سلام تحادث صانعاً... نعم أنا أعمل صانعاً في متجر سام، يا للإهانة! أتعجب بصانع! لقد جعلتني أتخبط...

ذات يوم قالت لي أمي إن الفتيات يعرفن عن الحب أكثر من الشباب، ظننت أنها تنحاز لهن مثل عادتها، لكنها لربما كانت على حق...

في هذا الأسبوع سام زاد أجري مئة يورو، إنها الكثير الكثير جداً، كان يكفيني مئتا يورو طوال الشهر، طعامي ومصروف سجائري التي علي أن أدخنها بحذر كي تكفي.

عند عودة سلام جاءت لي بطوق كتب عليه بلغة لا أفهمها نقش على قلادة حديدية تشبه قلائد البحارة القدامى، قالت لي إنه اسمي مع دعاء يردده قديس أوسلوي في معظم صلواته، تشكرتها، حتى أنها ألبستني القلادة، شعرت عندما دنت أن في شعرها عطر ليمون وقد اختلط برائحة زهرة علي أن أعمل كثيراً لأعرف اسمها، نظرت إلى جسدها بدأ يتراقص عندما ابتعدت عني، رأيت جانبها الأيسر... كحورية شقراء بيضاء البشرة ملسة الملمس أحسست بها دون لمسها، تشكرتها وغصت في صمت، جلست على الطاولة المقابلة لسريري، ثنت ركبتيها وجعلت ذقنها على كفي يديها وزمّت أصابعها،

نظرت إلي بابتسامة، شعرت وكأن سلاماً تشرق في وجهي، وأنها تفتح لي أبواب الحب وأنها أيضاً تومئ إلي بشيء كبير، كنت أشعر بضيق يطبق على صدري، وأشعر أنه يتوجب علي أن أبوح لها، وفي أسوأ الأحوال فلتكن مشيئته، ذات العبارة على القلادة "فلتكن مشيئته..."

قالت لي أمي ذات يوم إن مشيئته تتماشى مع حجم صدقنا بما نقدم عليه مهما ظننا أنه بعيد أو أنه صعب المنال.

كيف أكسر حواجز اللغة، والمكان والثقافة وكل المسافات ما بيني وبين سلام، لماذا علّها تحب عربياً أسمر، يلبس قمصاناً تبرز عضلاته، يمشي بثقة دون حتى أن يمتلك منزلاً يقيم به، وقفت... أوصدت الباب... كانت تنظر إلي بطرف عينها، أوصدته كما من يريد أن يخبئ سراً، كنت أشعر أن الهواء سوف ينقل شعوري بالخوف، أردت الاختباء أمام سلام، وأن أبوح لها بما يطبق على صدري، قلت لها: أريد أن أفضي لك سراً.

- ابتسمت
- سر! أتملك سراً لتخبئه معي أنا؟

وبدت الدهشة على وجهها، كانت تنظر إلي بحذر شديد وكانت في موقع المستقبل لكلماتي، قالت لي:

كلّي آذان صاغية.

وضحكت.

ألا ترددون هذه الجملة في بلدكم!

أدركت حجم المسافة، أو أنني توهمت بأنها كبيرة جداً، غصت في صمت مرتبك، زممت شفتي وشعرت بكعب ذقني يرتجف، كانت يدي اليسرى في جيبي واليمنى على كتفي الأيسر، قلت لها:

اسمعي، إنني وبصدق معجب بك.

كنت أريد أن أكمل القول، أتمنى ألا تخطئ فهمي وكلانا ينظر الأخر وأن أفضي لها كل ما في صدري قبل أن تنفجر ضاحكة

-هل هذا سر.

-حسناً... كنت أعرف.

شعرت بأني طفل يكتشف من أين ينطق الكلام.

تعرفين!

نعم... أعرف وأنا أيضاً أستميلك. إنك شاب وسيم لقد فكرت بالأمر حقيقة لكن إن أردت لهذا أن ينجح يتوجب عليك الكثير من

العمل، انظر، أنا لن أحب رجلاً يعمل في متجر للسيارات ولا يطمح بأن يمتلكه، سأحبه إن أراد الكثير والكثير دائماً، أنت شاب لطيف.

ورحنا بالحديث لساعات وأعطتني الشرارة الأولى للمضي، كانت ثاني اكتشافاتي لمعنى كلمة مضي ...

كانت أحد أسباب قبولي العمل مع سام كمورد جديد للفلاتر وبعد الكثير من السفر من توريد القنب المختبئ داخل صناديق الفلاتر، كانت سلام تنتظر عودتي في كل مرة وتحادثني في الهاتف على امتداد الأميال، تهديني أغنية... أشعر أنني أطير، تقول كلمة... فأشعر بحجم المسافة، تضحك... وأطير مجدداً على ارتفاع أكبر في سماء حب أوروبية عربية، كانت غريبة الأطوار أحياناً تبدي غضباً لما لا يغضب، وتبدي فرحاً مبالغاً به بهدية صغيرة.

أثناء عودتي من أوسلو، من عله يسافر إلى أوسلو في سيارة غيري، جلبت لها نفس القلادة التي تزين عنقي وكتب عليها "لقد كنت مشيئته ."

سلام هي امتياز كبير في حياة أي شاب، وعلى اختلاف ثقافاتنا، كنت أراها هي الأبهي هي الأجمل هي الأكثر الذي طالما حلمت به.

ذات صباح عند عودتي وبفترة زمنية قياسية من توريدي القنب المخبأ إلى أحد العملاء، دخلت إلى سام وكانت مدام ماري تجلس على

جانب مكتبه، يشربون قهوة تركية، ألقيت التحية فحيّاني ونظر إليّ من رأسي حتى أخمص قدمي وسألني كيف هو حال سلام، جفلت لوهلة، قلت إنها بخير حقاً بل أظن أنها الآن فقط بخير حقاً...

وقفت ماري وتقدمت إليّ : كريم لقد قضيت بيننا قرابة العامين، نحن بتنا نعرفك حق المعرفة، وأنت اليوم لست نفس الفتى الضعيف التائه الذي زارنا وقتها، ونحن نعرف ما يجمعك بسلام، استمع جيداً لا أريد سلام أن تعلم بمحادثتنا لا أريدها أن تشعر يوماً أنها تحت المراقبة، لقد بدأت منذ عام بدراستك الجامعية، عاماً تقريباً والطريق أمامك طويل نوعاً ما، أعرف أنك على قدر من الثقة والاعتماد، لكنني زوجة عربية بامتياز، وأم شرقية حين تتطلب الأمور، أنت تجمع المال الوفير هنا، أريدك أن تبقى على دراية تامة أنك وسلام تحت عين المراقبة مني ومن سام إيّاك والغلط، على كل حال لا أعتقد أن هذا الأمر سيطول، ولا نريد أن نبحث مجدداً عن مورد جديد لفلاترنا، تذكر أنك هنا فقط لتوريد الفلاتر .

عند عودتي إلى الاستوديو قابلتني سلام، قالت إنه يومها، تريد الذهاب الى حفلة تخص أحد أصدقاء العائلة، إنه عربي أيضا عراقي الجنسية، قالت لي: يتوجب علي أن أقابل العم سركيس، هو آشوري من شمال العراق، وهم عائلة لطيفة لم أعلم لماذا لا يريدون

اصطحابك أنت جزء من العائلة ولكن كما تعلم هنالك أشياء لا يجب أن نتشاركها الآن على الأقل حتى نعلن أننا نريد أن نعيش معاً.

شعرت بوحدة ذلك المساء...

في صبيحة اليوم التالي جاءت تخبرني أن أمها تريد منها مواعدة جورج ابن العم سركيس، استشطت غضباً، وأن أمها صارحتها بما قالت لي في مكتب سام وأنهم يريدون تدبير زيجة تقليدية لهذه الحورية التي تملي علي الحياة وتعطيها حياة .

بدا كل شيء يمضي بوجهي معاكساً لتطلعاتي وبدت ماري غاضبة حتى أنها طلبت من سام طردي وأن أعود إلى الشارع، كنا على هذه الحال على الأقل في الأشهر القليلة التالية، حتى جاء الخبر الذي غير كل شيء بشكل جذري وكبير، يومها أحسست أنني أريد فقط أن أهرب واختبئ على صدر أمي، أو أغلق باب غرفتي وأتحمل طباع أبي، بدا اليوم كل شيء أكبر مني، كيف عساي أدير هكذا حوار في حياتي...

جاءت سلام التي تعاني الكثير من التقلبات بعد انقطاع الطمث عنها من زيارة الطبيب وقالت إنها حامل ...

أب في الثالثة والعشرين

قبل قدوم ماركوس إلى هذه الحياة كنت بارتباك كبير بكل ما يجول حولي، سلام دائما متعبة، كانت تبدو جميلة كتفاحة طازجة، ماري غاضبة دائماً، حاولت في الكثير من المناسبات إقناع سلام بإجهاض ماركوس، لكنني كنت الأقوى، لعبت على وتر العاطفة عند سام وكنت طالما أقول لها إن الأطفال هم ثمار الحب، وأن ماركوس ثمرتنا الأولى، لقد توجب على سام ترتيب حفل زفاف لائق، وعليه أن يقدمني كابن أحد أصدقائه القدامى، لقد حادث أبي مرة على الهاتف وتعرف إلى أمي وكاترين عند زيارتهم إلى هولندا لحضور زفافي.

توجب على سام أن يحتمل كل هذا وطالبني بالإنفاق على كل خطوة أتت بنا الى هنا ولقد جردني من معظم مدخراتي، وبدأ يبدو بخيلاً بأوقات الدفع بعد التوريد، لم أكترث كنت فقط أراقب ماركوس الجميل، ماركوس عند ضحكته الأولى وعند بكائه الأول، كنت طوال الوقت أراقبه إذا كان جائعاً أو عطشاً وكنت أساعد في تغيير الحفاظات وفي تحميم وتعطير ماركوس، ثم أبتسم وكأنني لست على جاهزية لاستقبال هذا الحلم....

بدا كل شيء جميل ماركوس اليوم يمشي أولى خطواته، كريم على وشك الحصول على شهادة جامعية صحيحة ونظيفة، سلام أم رائعة، صديقة حميمة من وراء الخيال.

أمي انتقلت إلى المنزل الجديد، وأبي ما يزال يتفاخر بي أمام كل من تراه عينه، بدا وكأنني حصلت على الحياة، كنت أخطط وسلام لزيارة أمي في أوائل الصيف، حادثتها على الهاتف قبل يومين فقط وأخبرتها مدى سعادتنا ومدى حماسنا لهذه الزيارة، كانت تغازل ماركوس دائماً

ثلاثة أشهر فقط تفصلني على رؤيتها، بدأنا نجهز الهدايا كل شيء فاخر تراه أعيننا، قبعات لأجل كاترين، أحذية جديدة، فساتين وردية وسوداء، هذا لأجل مناسبة ما وهذا لحفل المدرسة، هذا عطر صيفي، وذاك عطر شتوي، كل شيء بدا في غايه الكمال هنا...

حادثني أبي عند العاشرة مساء، كنت مستلق وكان ماركوس يغمغم قبل نومه على صدري، وفمه فوق وشمي الذي نصفه عندي ونصفه عند سلام، أخذت الهاتف

الو

قدر الله وما شاء فعل، لقد توفيت أمك هذا الصباح إثر سكتة دماغية مفاجئة، دون أي عارض صحي.

كانت سلام تنظر إلي أثناء المحادثة وكأنها استشعرت أن هنالك خطباً عظيماً ما، جعلت التلفاز صامتاً وأخذت أتمتم مع والدي على الهاتف، كنت أحمل ماركوس باليد الأخرى أشده على صدري،

اقتربت مني سلام وأخذت تراقب الحديث حتى انتهينا، كلمت كاترين وقبل أن تنطق بأي كلمة نزلت دمعة سخية من عيني اليسرى إلى شعر ماركوس، أقفلت الهاتف، أخذت سلام ماركوس المضطرب وغمرتني ...

جعلت رأسي إلى رقبتها وبكيت كطفل صغير، إنه فراق الأم...

أخذت كل الأحداث تتسارع، لقد وصلت إلى ذروة الموردين عند سام وأصبحت على علاقة طيبة معه، كنت سخياً دائماً.

بدأ ماركوس يخطو وبدأ ينطق بعض الكلمات باللغتين العربية والهولندية، كنت أرى في عينيه الخضراوين الواسعتين وفي جسده الممتلئ الطويل نسبياً رجلاً صغيراً يكاد لا يتنظر حتى يكبر .

كنت دائماً أتذكر مورد الفلاتر إيريك وكيف قضى عندما انتهى منه سام وكان لدي نفس الكابوس دائماً، رغم امتلاكي كل إحداثيات الأمان مع عائلتي الهولندية.

ولكن بعد اشتداد لهجة سام وماري معي بالتذكير بأن مصيري قد يكون نفس مصير ايريك ولطالما اعتقدت أنها مجرد مشادات كلامية إلى أن رأيت نفسي أستيقظ بجانب سلام بوضع صحي سيء جداً بعد كأسين من الويسكي على شرفة شقة سام، وأخذت مني بضعة أيام لأنهض من جديد، قال لي طبيبي أنه علي مراجعة البار

والتقدم بشكوى رسمية حيث أن الشراب حمل إلى جسمي حالة تسمم من الدرجة الأولى، وأن الشراب قد خلط بمادة مخدرة، كان علي أن أراجعه بشكل دوري لمدة أربعة أشهر، فجأة بت أرى سلاماً التي كانت خطوتي الأولى بالدخول الى العائلة هي خطوتي الأولى بالخروج منها، لم تكن دافئة في ذلك الصباح، كان دفئها يخنقني...

عندما علمت أن أقوى مصادر سام هو شاب جزائري يعيش في فرنسا، هو الذي كان يدبر كل احتياجات سام مهما كانت كبيرة وعلمت أن سام وثق بي أكثر من اللازم، ومع ذلك لم يكف عن معاملته الدونية لي، كنت أقابل الجزائري فيصل مرة كل بضعة أشهر، أجلب منه ظرفاً لفروق الحساب وما إلى ذلك، بعدها بدأت أجلس معه بدلاً من سام، وكنت أنا عملياً القائم على هذه التجارة

مر عام كامل ومر علي خمس سنوات عند سام، لم أزر قبر أمي وبيت أبي الجديد، لم أكن أبذر أياً من مدخراتي وكأنها لا تعني لي شيئاً، لم أستمتع بها يوماً كرصيد كبير في بنك أوروبي...

في إحدى زياراتي لفيصل منذ ثلاثة أعوام، ذكر لي أنه يفكر في زيارة مدينة هارلم وقال إنه يعرف شاباً يملك نزلاً في شارع رئيسي ومعروف يعرضه للبيع، قال يمكننا أن نجعل منه استثماراً مهماً

ومصدراً جيداً لتغطية الأموال التي تدخل حساباتنا، ذكرها وكأنه يمضي على فكرة عرضية، لكنني اقتنعت بها لاحقاً، لا يهم المبلغ الذي يأتي به هذا النزل، ما يهم أن هنالك غطاء للمال، بدا فيصل كصديق لي. كان يكرر لي دائماً أنه يستلطف شخصي، كان سخياً معي...

حادثته على الهاتف بعد عدة أيام وقلت له إنني مستعد جداً لأكون شريكاً في هذا المشروع الصغير نسبياً بالنسبة لفيصل، حددنا موعداً للقاء في مدينة هارلم وزرنا صاحب النزل واتفقنا على كل الترتيبات القانونية لعملية البيع ونقل الملكية، وقمنا بتحويل الأموال...

تم كل شيء دون علم سام، هذا ما طلبته من فيصل، بدأنا نتقاسم أرباح النزل بعد أن استثمرت كل ما لدي في هذا المشروع، كنت دائماً أعطي فيصل ما يزيد على نصيبه منه وكان على دراية تامة وجاء على ذكرها في أكثر من مناسبة، بدأنا نلتقي كل أسبوعين في هارلم، وكان سام في الوقت نفسه يزيد من تضييق الخناق علي خاصة بعد أن أفصحت سلام عن مشروعي الجديد في عشاء عيد الفصح الذي تلاه .

بدأ كل شيء مرحلة تحدٍ جديد خصوصاً بعد عرضي الجديد على فيصل في أن أحل محل سام وأن أقاسمه الربح بطريقة أفضل، قلت له ثلاثون بالمئة فقط بدلاً من المناصفة، كان عرضي سخياً حقاً، كان انتقاماً من سام الذي ساعدني، وانتصاراً على معاملة ماري السيئة لي حتى أنني بدأت أهمل سلاماً في الفترة الأخيرة، وكنت على شغف كبير بماركوس، أصبح ماركوس كل شيء يربطني بها وصرنا قلما نتكلم، سلام التي اعتادت أن أفصح لها عن درجة حرارة أنفاسي وعدد دقات قلبي، ودرجة الألوان في ناظري.

كانت سلام على قلبي السلام، سلام الصبية الصغيرة المليئة بالحركة والحيوية والحب، سلام التي قاتلت وبشدة من أجل صبي عربي، وكانت دائماً إلى جانبي منذ خطوتي الأولى في امستلفين، وكأنني استيقظت صباحاً وعلى عجل وعرفت فجأة أنها لم تكن ذلك السلام، لم أعرف السبب فقط بل عرفت أن سلاماً بدت شيئا آخر، كانت كعادتها سخية وشهية عاشقة دؤوبة، زهرة يفوح منها الدفء والطمأنينة، لكنني وعلى حين غرة صرت شخصاً آخر صرت شيئاً آخر، صرت ما كنت أخشى وأنتقد بشدة، بدأت أشعر بمسافة بيننا، كنت كالذي ينتقل من مكان إلى مكان جديد، ومن نمط حياة إلى نمط جديد، وحربي مع سام وماري أكثر ضراوة خصوصاً، بعد أن قلّتْ مخصصات سام من فيصل وعندما بدأت أظهر راحتي

المادية وأستعرض أمام العائلة، طالما أهانتني مدام ماري بكلمات باردة تذكرني دائماً أنني التائه الذي انتشلته، وسام يذكرني بأنني مسحت السيارات في معرضه ويذكرني بإيريك، كنت على يقين أنه الآن في مكان ضعيف، من جهة لدي سلام وماركوس ومن جهة أخرى علاقتي التي تشتد كل يوم بفيصل، بدأ فيصل يعطيني مفاتيح الأشخاص الذين يعتمد عليهم سام، وعلمت أن هنالك ما يقارب العشرة أشخاص كما سام، وبدأ يقدمني على أنني فرد جديد من العائلة، هنا أيقنت أنه لا عودة...

ما بعد العام السابع في امستلفين:

في عيد ميلادي الثلاثين، فاجأتني سلام بزيارة مع ماركوس، إلى نُزل "ماركوس" في هارلم، في السنوات الثلاثة التي مضت أصبحت علاقتي بسلام مرتبطة بماركوس فقط، وصرت لا أترك مناسبة لا أشعر بها سام بمدى ضعفه وعجزه أمام ماركوس سيتي الترفيهية، والتي الآن أفتتح فرعها الثاني في شتوتغارت على الأخص بعد خروجي التدريجي من سوق تجارة القنب، طالما كان الكرم مفتاح القلوب.

منذ كأس الويسكي على شرفة سام، أصبحت سلام على ما يبدو بين نارين أنا وماركوس من جهة وتصرفات أبيها من جهة أخرى، بدت غريبة الأطوار أحياناً، متأففة دون سبب أحياناً أخرى وبدت

نقاشاتنا مشادات كلامية حتى أنني أتذكر جيداً حين خرجت في ليلة ضبابية من شقتنا إلى نُزل ماركوس وقضيت الليل فيه، كانت سلام في الأشهر الأخيرة حتى انفصالنا شديدة الغضب، حتى أن ماركوس مرة طلبني في الهاتف وقال لي أن هناك شاب يتردد إلى المنزل، سألته إن كان قد قضى الليل فيه فنفى وقال إن سلام تحبني، لكننا لم نعد كما كنا قبل منذ مرضت، وقال إنه يتمنى لو أنني أمرض ثانية كي نعود عائلة كما كنا...

ثلاث سنوات في هارلم، احتفلنا بعيد ميلادي لم أقرب سلاماً يومها، ظل ماركوس غافياً على يدي حتى الصباح، رحلت سلام في اليوم التالي، أما ماركوس قرر أن يبقى بقية الأسبوع برفقة أبيه مستفيداً من أيام العطلة المدرسية، هكذا صرنا أنا وماركوس، يأتي في عطلات نهاية الأسبوع نخرج معاً نتحدث كصديقين من نفس العمر، كنت أتمنى لو أنني أستطيع أن أخبره ما الذي أتى بنا إلى هنا، كان يحب سام كثيراً، وكان علي الانتظار حتى أنقل الحقيقة كاملة إليه...

4

سحابة صيف في النمسا

قاعة فسيحة ذات أرضية رخامية فضية اللون يتخلل الرخام أحجاراً لامعة تبدو كماسات صغيرة، طاولات عليها شراشف فاخرة ونوافذ واسعة تطل على حديقة فيها بحيرة وملعب غولف... صوت تشيلو ممزوج بصوت كمان وبيانو، أصدقاء نموذجيون لحفل رسمي راق، بدلات رسمية من صناعة ماركات عالمية فاخرة ومصممون معروفون على مستوى أوروبا، فساتين ساتان ودانتيل بتصاميم لا تقل عن وزن الحضور، والكثير من الأقمشة الفاخرة التي تبدي من التصاميم جمال مفاتنهن... كان هنالك شاب بدين شعره أصفر كالنحاس يمشطه إلى جهة اليمين ليخفي بداية الصلع،

له لحية خفيفة شعرها متناثر في وجهه، وشارب مترام، فمه عريض ووجهه طفح ممتلئ، يلبس بدلة سبور شيك، حذاء أسود لامع، بيده كأس ويسكي وبالأخرى سيجار عريض، كان يضحك وكأنه أطلق العنان لكائن ما يختبئ بداخله...

هو الشخص الوحيد في هذا الحفل الذي ترك الزر الأول من قميصه الكاروهات مفتوحاً والشخص الوحيد تقريباً الذي يحمل كرشاً فوق قدميه، يتدلى تدل بسيط ليغطي حزامه.

كنت أقف صامتاً أمسك بكأس على مستوى صدري وأنظر إليه بقنوط، شعرت وكأنني قد استبدلت عمودي الفقري بلوح خشبي وقدماي تسمرتا تماماً إلى الأرض والتصقت بأرضية حذائي، نظر إلي شعرت أن الحضور اختفوا عندما التقت أعيننا وأن ضغط هواء الغرفة قد ارتفع وأن هناك خطاً من الطاقة فيما بيننا شعرت بجسدي يستجمعها وأن يديّ قد انتفختا وصررت قبضتي على كأسي، ابتسم ابتسامة مصطنعة وأشار لي "بصحتك " أومأت إليه بصمت ولم أحرك أي من عضلات وجهي كان هناك امرأة ثلاثينية ممتلئة الجسد تلبس فستاناً أحمر نارياً يتدلى على أردافها وخصرها ويرسم بعض ملامحه شعرها أسود كثيف متعرج، بدت وكأنها حضرت جلسة ماكياج خفيفة تليق بحفل كهذا .

في البحث كنت دائم الترحال، كنت أتقلب كيوم خير في المزاج من مدينة إلى أخرى ومن أرض جرداء إلى سهل ومن سهل إلى جرد أعبر طريقاً طويلاً، أقودها بأشد الحماس لكني تائه المقصد دائماً، أنا بحجم قدرتي على امتلاك كل شيء وأكاد لا أمتلك قرارة نفسي، أكاد لا أستطيع أن أحدد ما هو عشائي اليوم، أبحث عن شيء يخرجني من هذا الضيق . ضيق بلا سبب...

خرجت من هذا الاحتفال الكبير وكأنه لم يكن كل ما أصابني منه هو إرهاق الجسد فقط، لا طعم له ولا لون، لا مقصد لي بهؤلاء الذين قابلتهم ولا يهمني ماذا يقصدون بي، هذا أنا دائماً طليق مقيد، حر المزاعم، زعمي حقيقة وحقيقتي واقع مؤثر جداً على كل من حولي.

صعب جداً أن أرضى، فالرضى بالنسبة لي هو حد نهاية طموحي بذاك المبتغى الذي رضيت فيه.

أريد أن أتنفس. لم يخرق صدري لا هواء صيفي ولا هواء بارد أريد أن أخرج من جسدي وأتأمله... أتأمله وهو في عري كامل. سأحزن عليه لساعة وأعجب به لساعة سأضمه ساعة أخرى وسأنفر منه ساعة أخرى... سأجلس معه كشخص أخر يفهمني تماماً.

ساعات بصمت... صمت فقط، هذا الصمت يقرؤه كل ما بداخلي لا حزن يكفيني، إن الحزن لا يكفي أبداً حتى شديد الحزن لا يضيف إلي شيئاً، لا فرحاً عرمرماً، إني لا أفتقد شيئاً حتى إذا جاءني فرحت.

أراك أيتها الآلهة جسدي الذي تحدثت عنه، لا أضيف لذلك شيئاً، أنتِ فقط هو، أنت أنا، أنت الذات التائه الذي وصل مبكراً جداً إلى كل ما أراد، أنت المعذب الذي على قدر ما عُجن وصُبغ ولطخ وضرب تشكل بصيغة لا تقهر، أنت أنا الذي أراه فيّ، أنت الذي لا أرى شيئاً سواك.

بدأت أتأملها كانت ممتلئة بطاقة لم أستطع تفسيرها بهذه اللحظة تتحدث بصوت أنثوي مع أحدهم وترمقني بطرف عينها خلسة، وأنا بدوري أمثل عدم الاكتراث، نظرت تجاهي مبتسمة بإغراء وكأنها لم تعنها لي، أعطتني إشارة دون أن تثبت ذلك أدرت لها ظهري تحدثت مع أحدهم كنت أشعر بنرجسية كبيرة، الوحيد الموجود بهذه القاعة، أشبه ممثلاً بدور البطولة ومن حولي هم كومبارس الحلقة حتى هي...

شردت في غفلة مع أني لم أفكر بها... حينها بدون إنذار أحسست أني أشتم رائحة جسدها، إنها شهية وأن هذا البهاء لايزال موجوداً في أنثى نظرت إليها نظرة إعادة تقييم رمقتها مجدداً قدماها ناعمتان،

أصابع يديها تتناسب تماماً معهما في نعومة فائقة عنقها الطويل تتدلى عليه خصلة من شعرها وكلاهما ممزوج ببريق قصب المكياج.

أكاد أستطيع تحديد أماكن على جسدها وضعت عليها عطراً، جرّني غروري إليها وقفت أمامها مشدود الظهر على مسافة قريبة، لم أنبس بحرف اقتربت مني ونطقت بصوت شديد النعومة :

مرحباً... ليزا

هززت رأسي مومئاً برضى، صمتت لوهلة ثم قلت:

كريم

بدت أنها تريد الاستمرار بالحديث لكن قبل أن تنطق أدرت ظهري وخرجت .

كان الحفل لا يعني أبداً حفل تعارف بين أصحاب رؤوس الأموال ينتهي بمزاد نشتري منه شيئاً لا يستحق ربع قيمته، فقط كي تكون لنا قيمة بين الحضور ولنثبت حجم ثرائنا، إنه لا يعنيني أبداً وثروتي سريعة المنال.

خرجت إلى سيارتي المرسيدس التي جئت أستعرضها وقدت بهدوء وصمت شديد إلى شاليه ريفي في منطقة جبلية، شربت كأساً

من الويسكي وأنا أوقد موقد الحطب، ارتديت بجامة خفيفة وجلست أدخن أمام النافذة ثم غفوت على الكرسي الهزاز.

لم أغفُ إلا قليلاً حتى رن هاتفي النقال لم أكترث ثم عاد الرنين... صمت قليلاً ثم رنة ثالثة من ذلك المتصل أجبت

هلو

_ مرحباً سيد كريم (إنه صوتها) أنا ليزا كنت أتساءل إن كان بالإمكان زيارتك في مكتبك أنا أعمل كمديرة علاقات عامة في شركة الاستثمار العقاري ونحن بصدد بناء منتجع صيفي وشتوي وقد علمت من الشخص الذي أعطاني رقم هاتفك أنك تملك أوتيل هل لي...

_غداً صباحاً عند العاشرة في مكتبي سأرسل لك العنوان في رسالة.

نسخت عنواني من رسالة نصية ولصقته في أخرى أرسلته لها جاء رد سريع.

_أنتظر غداً بحماس.

أرسلت لها إشارة تعجب: !.

وردت عليّ بوجه مبتسم : طاب مساؤك.

في اليوم التالي استيقظت عند العاشرة والربع. جسدي كان ثقيلاً كان الطباخ قد أعد قهوتي ومررته خادمتي الخمسينية جوليت، وضعتها على طاولة الصالون. أخذت حماماً سريعاً شربت قهوتي وصلت عند الحادية عشرة إلى مكتبي وكنت قد نسيت تماماً موعد ليزا حتى أنني عندما رأيتها في صالة الاستقبال سألت نفسي للحظه ماذا تفعل هنا .... وقفَت بغضب مكبوت:

_هل كل شيء بخير سيد كريم؟

_آسف على التأخير تفضلي.

كانت ترتدي بدلة رسمية نسائية مع كعب عالٍ وتبدو عليها سمة المُجِد في العمل، أحترم ذلك أحب أن تزورني صبية جميلة حسناء تصغرني ببضع سنوات وأن تراني مفتاح نجاح في سيرتها الذاتية.

للمال لسان سليط في هذه المدينة.

أخرجت حاسبها المحمول وعرضت عليّ مشروعاً استثمارياً يجذب رجال الأعمال مؤخراً وهو الأول من نوعه في المنطقة والجغرافيا هنا مناسبة تماماً.

اقترحت أن نزور المشروع. قبلت، لكن أحسست شبه متيقن أن الذي شدني إليه هو شعرها المشدود رائحة عطرها وأنوثتها المفرطة قلت لها ونحن في الطريق .

_يجب أن تكوني من أصول شرقية فأنت شديدة الجمال على أن تكوني فتاة أجدادها أبناء هذه الجغرافية.

_لم تخطئ تماماً والدتي مكسيكية ووالدي من هنا من النمسا وأنا أتحدث ثلاث لغات بطلاقة، أضف إلى هذا أنني اكتسبت بعض العادات من هنا وهناك خاصة أنني كنت من أعضاء الفرقة المكسيكية في الكنيسة أثناء دراستي الثانوية وكنت نمساوية تماماً أثناء دراستي الجامعية فاكتسبت هذا المزيج .

_لا عجب في ذلك نظرتي لا تخيب.

وصلنا إلى المشروع وبدأت تشرح لي وتطلعني على التفاصيل المهمة وعلى مقدار الأهمية العقارية للمشروع وأن أسعار أسهم البورصة سوف تتضاعف قريباً وكانت منغمسة تماماً في هذا الشرح الذي يستهويني حتى أنها أجرت بعض المكالمات لتتأكد من بعض الأرقام وهي في خضم حديثها عن أهمية الموضوع وأنه سيكون تحت إشراف إدارة متخصصة وسوف يجذب الكثير من الناس ويجمع كثيراً من الفعاليات، خاصة أن كبار المستثمرين فيه من شركات طيران وسياحة.

أشعلت سيجارة وملت إليها قليلاً، وسألتها بصوت منخفض

_كم علي أن أدفع؟

بدأت تشرح لي عن النسب والدفعات والأمور المالية قاطعتها :

_حددي رقماً وتعالي مع العقد إلى مكتب محاميّ الخاص وأنا جاهز للتوقيع وبهذه المناسبة فلنحتفل سوية في المطعم الصيني هذا المساء .

_عذراً لا أستطيع الخروج مع زبائننا المحتملين .

_عذراً، ما جعلني زبونك بالدرجة الأولى هو أنت، شخصيتك وأسلوبك...

رحلت دون أن تقول كلمة واحدة وأرسلت لي العقد بعد يومين مع محامي الشركة، كنت أشعر أني ضئيل جداً دنيء النفس خلال هذين اليومين .

بعدها أتى العقد فأحسست أننا لم ننته، أو أنني توهمت ذلك عندها...

قمنا بالإجراءات القانونية كاملة وتم توقيع العقد وتحويل الأموال بعد جلسة استشارية طويلة مع محاسبي الخاص الذي تحمس جداً- هو ومكتبي الإداري- إلى مستقبل ناجح لهذا الاستثمار على المدى البعيد. طلبت من المحاسب أن يأتيني بعنوانها... ذهبت إلى متجر الورود اخترت باقة جميلة ثم اشتريت عطر اًمن أجود الأنواع، رجعت إلى منزلي ارتديت جينزاً وقميصاً. وصلت إلى بابها قرعت جرس

الباب... نظرت إلي باستغراب شديد ارتبكت أحسست بها سعيدة قدمت الورود وقلت لها :

_الآن انتهينا من العمل، هل لي باصطحابك إلى عشاء سيدتي؟

صمتت قليلاً ثم أجابت :

_عند التاسعة مساءً

عند التاسعة تماماً كنت عند بابها. ثم خرجنا حدث كل شيء بسرعة بعد العشاء أوصلتها شعرت بطاقة تخترق رأسي كنت أريد أن أعود إليها حتى أنني وقفت قليلاً في الطريق شردت بتفاصيل الحديث... والدها رجل الأعمال هي مديرة علاقات عامة هنالك حلقة تائهة بين الأب وابنته.

إن لم يكن هو نفسه صاحب المشروع علي أن أتحرى أسماء الشركات المساهمة في المشروع أو ربما أسالها مباشرة...

أمها المكسيكية ستعود بعد أسبوع أريد أن أرى المرأة التي هرمت التي أنجبت هذا السحر الذي أغواني إلى عشاء في هذه الليلة.

كنت متحمساً كمن ضاع بسحرها، شعرت بأنها أعجبت بفكرة أصولي العربية وكيف أني بدوت لها في مظهر العصامي... أنتظر الصباح علي أكلمها ثانية ...

هي ليزا، لربما جزء من هذا الضياع الذي لا ينتهي، هي اليوم فاتحة يوم جديد في العمر، صباح بعد تعب... لم أنم تلك الليلة...

عم أبحث ...؟

عن أمّ.. أم وطن؟

عن زاوية ما ألقي فيها كهلي المبكر وأنطلق بشباب جسدي الذي بدأت أشعر أنه سئم من حمل روحي هذه...

عدت إلى الشاليه، شربت قهوة تركية ثقيلة، ودخنت بعض سجائر المالبورو الأحمر، رميت كل ما في جيوبي على الطاولة مددت قدمي على نفس الطاولة ثم غفوت غفوة نائم صاح، رأيت نفسي أعانق أمي وأعطيها الكثير من المال وهي رمت مالي وجرتني إلى غرفتي بأثاثها القديم نفسه أعطتني ساعتي القديمة وسوار جنى نعم جنى... ما الذي أتى بجنى .

ثم سرت معها في شوارع البندقية واستيقظت على صرير باب الصالون يقفل بهدوء ثم صوت رسالة نصية

_كانت ليلة جيدة عمت مساءً

هذيت بصوت ماركوس يناديني ولم أفهم شيئاً، تفقدته في غرفته قبلته بهدوء كان نائماً ثم أخذت حمام المساء ونمت بعمق شديد حتى الثانية عشرة في اليوم التالي...

شربت قهوتي وأخرجت ورقة من طابعة مكتبي وسجلت عليها ما يلي:

_مشروع المنتجع... كلم المحامي.

_زيارة إلى امستلفين... تفقد أوضاع العمل.

_أهاتف كاترين .

ثم إن وجهك لم يفارقني حتى على الجدار الأبيض المقابل لي... أكتب هذا...أنا في مأزق ما مع فتاة ما مجدداً .

أخذت هاتفي طلبت رقمها ردت في رسالة .

_أنا في اجتماع أكلمك لاحقاً هل كل شيء على ما يرام.

_لا سيدتي أنا لست على ما يرام.

_هل تحتاج مساعدة ما ؟

_نعم

_كيف ذلك؟

_أرسلي لي رسالة نصية بعد الاجتماع.

_حسناً قابلني في مكتبي بعد 20 دقيقة.

خرجت لها ببدلة بريوني كحلية اللون ركبت سيارة المرسيدس وضعت عطراً لم أعتن بشعري أو ذقني خرجت وفقط .

دخلت مكتبها بل إنني بطريقة ما اقتحمته جلست خلف طاولتها وتجاهلت عباره (ممنوع التدخين) أشعلت سيجارة واستعملت محبرة للديكور لتكون منفضة مؤقتة، دخلت ليزا وصرخت سيد كريم أتيت... رجاءً اطفئ السيجارة وافتح الشباك. تجاهلت ذلك وأخذت قلماً وورقة وكتبت

لم أر مثلك أثيراً لم أقع في بحر قط، لم أعرف نساء لم أعرف نفسي التي أكتشف اليوم هنا عندك أنت ليزا أريدك... أريدك الآن أريدك معي... طويتها وتركتها على لوحه مفاتيح كمبيوترها المحمول .

لم أنتظرها خرجت متوجهاً إلى ماركوس، اصطحبته إلى امستلفين استمتعنا بموسيقا الطريق وحكاياتنا التي تضفي عليه الكثير من البهجة، رن هاتفي إنها ليزا لم أجب أكملت الطريق.

في المساء رن ثانية كنت قد تركته على طاولة السرير ثم أنني لم ألاحظه حتى الصباح التالي كان يومي الثاني مكتظاً بين عمل وماركوس وكان علي إيصاله ليرى سلام .

صافحتها لم أشعر بوجودها حتى.

كيف الناس تعطى نعمه النسيان هكذا...أشعر باختلال ما يترافق مع نرجسية من نوع آخر عدت إلى عملي وعند السابعة زارني

رفاق قدامى وجرى حديث طويل لبثنا معاً حتى وقت متأخر جداً... كان عليّ أن أحادث ليزا .

في صباح اليوم التالي طلبت رقمها رن الهاتف وأجابتني...

_سيد كريم هل هذه لعبة الأغنياء! على صعيد العمل لقد انتهينا تماماً وعلى الصعيد الشخصي أنت شخص مستفز جداً أشعر بأنك بحاجة إلى إعادة تأهيل وتقييم لعلاقاتك مع الأشخاص كيف لك أن تصبح على هذا الدرجة من الاستفزاز، تصرفك غير مسؤول وأنا أحاول محادثتك ليومين على التوالي...

_على صعيد تأثيرك... مساؤك جمال سيدتي

_هل لك أن تكون جاداً بعض الشيء ثم أنك...

انتهت المكالمة وأقفلت الخط.

وضعت هاتفي على الطاولة أعددت قهوة ثقيلة ووضعت الفنجان بجانب هاتفي تأملته بصمت فتحت رسالة جديدة لها وكتبت:

_عطرك يملأ المكان صوتك في المرة الأخيرة كان هادئاً وكنت أنيقة جداً ثم أنك مثيرة للاهتمام بنظري أو هل أستطيع محادثتك أو مراسلتك بوقت تكونين فيه بمزاج أفضل

_لا تراسلني

_حسناً سأكلمك

_!!

_أكاد أرى اهتمامك

_أنت مخدوع بنفسك

_وربما مخدوع فيكِ

وضعت هاتفي جانباً ارتديت شيئاً خفيفاً توجهت إلى المطار...

في الطريق كنت ألوم نفسي على كل شيء، كل شيء تماماً أتصرف بطيش كبير... أسعى دون أهداف شخصية أتكبد عناء السفر من هولندا الى النمسا لأقابل فتاة... إهمالي قادها لتنبذني.

وصلت بابها في وقت متأخر، أحمل في يدي اليسرى فنجان قهوة سريعة وفي اليمنى وردة بيضاء... طرقت الباب... رأتني من جهاز الانترفون .

_ما الذي أتى بك؟ أنت مشغول جداً لكي تأتي الآن عوضاً عن الصباح؟

_آسف كنت أنوي المجيء منذ أغلقت الخط لكن المسافة بعيدة من هولندا إلى هنا...

_هولندا!

_نعم هذه عودتي من المطار لم أجد رحلة أقرب من هذه ثم إنه في يدي فنجان قهوة ووردة جئتك بقهوة...

سمعت صوت قفل الباب الآلي ثم صوتها على الدرج المقابل للباب:

_من المعيب أن نرجع أحداً من الباب في عاداتنا...

_اخترت لك أمريكانو سادة

_أنت لست جاداً

_لم أكن يوماً على أي حال

_قل لي ما تريد سريعاً من فضلك

_عندي تاريخ وقصيدة وروح متعبة وحلم كبير بصيف لا ينتهي...

كانت قد وصلت الباب، نظرت إليها تأملتها... صندل صيفي فوقه شورت وكنزة خفيفة شعرها مجدول إلى الخلف وتضع دبابيسَ فيه.

توجهت إلى الصالة .

_تفضل .

جلست ثم قالت:

سيد كريم لقد أنجزنا صفقة مهمة، تحرشاتك باتت مزعجة جداً، فلنوضح الأمر على الشكل التالي تقابلنا في مزاد علني، حصلت على رقم هاتفك من رجل أعمال آخر، وعقدنا صفقة ثم قبلت مجاملة دعوتك وانتهى الأمر... ثم إن رسالتك في مكتبي خدعتني لوهلة لكني عندما توغلت في أفكاري عنك تيقنت تماماً أنك شخص خاطئ ثم أني...

قاطعتها. وقفت وأمسكت يدها اليمنى بيدي اليسرى وأعطيتها الوردة وشكرتها على الاستقبال ثم أجلستها على الكرسي... جلست بهدوء كانت ترمقني بعينيها العسليتين الواسعتين تأملت رقبتها اللامعة وعظام ترقوتها البارزة ثم جلست بجوارها وقلت :

_أنا معجب بك على الرغم من أني مللت النساء على الرغم من هذه الشخصية الناجحة التي ترينها لكني أمضي بلا هدف علك تريني هدفاً ما، إني كتائه يبحث عن نفسه بمكان ما... بشخص ما... بفكرة ما.

وقفت بهدوء وقالت بصوت ناعم:

_شكراً على الوردة وشكراً على الزيارة المتأخرة.

وقفت ومشيت نحو الباب... شعرت أنه بعيد جداً ثم ذهبت...

عملت كثيراً في الأيام التي تلت ذلك، أشغلت نفسي بأمور كثيرة كي أنسى هذه الإهانة ودققت بأتفه تفاصيل الأمور كي أشغل عقلي عنها.

ومضى أسبوع بعدها لم أكلمها ولم تحدثني أبداً.

في الأسبوع التالي كنت ماراً بسيارتي بشارع مليء بالمحلات التجارية لمحتها... وقد دخلت إلى محل ملابس ركنت سيارتي على عجل ونزلت إلى محل هدايا مقابل للشارع... صدفة رأيت أول شيء في المحل دمية كبيرة على هيئة فتاة تشبهها كثيراً، لون الشعر ذاته نفس تفاصيل الجسم... اشتريتها ودخلت ذلك المحل الذي اختارته، كانت تقلب البضائع وتتجول بالمتجر.

عندما دخلت التفتت نحوي فقلت :

_وجدت هذه الدمية أمامي إنها تشبهك كثيراً أردت أن أعطيك إياها .

_شكراً سيد كريم ضعها جانباً أنا مشغولة الآن نتحدث لاحقاً.

أحسست بشيء مر في فمي وبإهانة أخرى .

أعطيتها الدمية شكرتني ثانية وذهبت...

كنت أحب الطريقة التي تلفظ بها اسمي بشكل صحيح على الرغم من ذلك.

وصلت سيارتي، جلست مشابكاً يدي أحسست بخجل كبير من نفسي كيف أتعامل هكذا مع سيدة وماذا أريد منها أصلاً؟

استجمعت قواي وقدت بشكل عصبي وصلت إلى الشاليه وعندما دخلت من الباب شعرت أنني أرى نفسي لأول مرة في تلك المرآة الموجودة في مدخل البيت تأملت وجهي شعرت أني خرجت من نفسي. كانت عيناي العسليتان الواسعتان متعبتين ولحيتي قد نمت قليلاً بعد أن نسيتها عدة أيام بلا تشذيب (طالما أحبتها النساء) أشتم رائحة عطري، خارت قواي تماماً جسدي الطويل منهك، لا أصفف شعري عادة يصفف نفسه بنفسه، مشيت بثقل إلى غرفتي تمددت على السرير بشعور سيء، تأملت سقف الغرفة وغفوت... اثنتا عشرة ساعة.

عندما استيقظت وجدت الكثير من الاتصالات الفائتة على هاتفي... ماركوس قد اتصل كثيراً، ورسالة منه ورسالة منها... فتحت رسالتها أولاً.

_شكراً على الدمية لكن تصرفك لم يكن لائقاً أبداً رجاء حاول ألا تزعجني ثانية.

فتحت رسالة ماركوس:

_أبي مضى يومان هل كل شيء على ما يرام إنني قادم غداً اشتقت لك.

نهضت بجسدي الثقيل ذهبت إلى مكتبي، كانت جوليت قد أعدت القهوة ووضعتها في مكانها أخذت ورقة بيضاء وكتبت باللغة الفرنسية:

_أنا يا سيدة أحتاج إلى الحنين... الكثير من الحنين...

ثم وضعت فنجان قهوتي فوق الورقة أشعلت سيجارة وبدأت بشراهة أجري اتصالات عمل متراكمة لدي، وبعد ساعة تقريباً رميته جانباً وقلت لجوليت:

_اجلبي ماركوس لي.

حضرت له كل ما يحب وبعد نصف ساعة جاءت جوليت وقالت:

_قمت بجميع الإجراءات سوف يصل مساء.

استقبلته بحب شديد وبعدها قلت له :

_هذان اليومان ملكك، كل شيء تريده فيهما هو لك

ذهبنا إلى المسبح، اشتريت له جيتاراً جديد وملابس، ذهبنا إلى مطعم صيني مشهور في جنيف، تسابقنا بمعلومات نعرفها عن النبيذ، كلانا لا يعرف الكثير، نحن لسنا جنيفيين ولا هولنديين ولا عرباً. نتكلم الألمانية والفرنسية والهولندية ولا نمت لهم بصلة، نعيش طليقين كحصاني سباق، نعيش حرية الضياع قيد اللامكان هوية دون منشأ، ومنشأ ضاعت هويته، نعيش كل الحب الذي

نبحث عنه، نبحث عن أنفسنا بين كل نجاحاتنا ثم نثبت ونمضي... نمضي دون ثبات ثم ننام منهكين ونستيقظ بطاقات جديدة بدون مصدر، ونعيد الكرة بطريقة جديدة .

بعد أن انتهى هذان اليومان كنت جالساً مساء على طاولة المشروب في منزلي أمامي كأس الويسكي وسيجارتي.

عادة ما تأخذني جلساتي مع نفسي والكأس لمساحة أخرى لتعطيني بعض السكينة كي أستجمع أفكاري، بل إنها وبصورة ما طقس لابد منه عدة مرات في الأسبوع إن لم يكن يومياً، وعادة ما أشعر بترابط ما بين الكوهيبا والبلاك ليبل لكنني اليوم بالذات أشعر أنهما ضيفين ثقيلين على مسائي وكأن شيئاً ما يدفعني لأترك هذه الغرفة وأمضي، أستغرب كيف أفقد الشعور بهذين الرابطين، هناك علاقة وثيقة طويلة الأمد فيما بيننا أحسست أنني أرفضهم بشدة، شيء ما من ضياعي يقول لي أن أنهض .

إلى أين؟

ارتديت حذاء رياضياً وخرجت إلى الحديقة الواسعة متأملاً شجيرات الزينة كيف صففت بدقة شديدة وأن البستاني لابد أنه وضع كل طاقته وكل ما أوتي من ذوق وأضاع نهاراً كاملاً بتشذيبها وسقايتها حتى تبدو طازجة ومرتبة بهذا الشكل، لكني لاحظت غصناً

وقد فلت منه. مشيت إليه على البلاط شبه الجاف، قصمته، ووضعته بين أصابعي وذهبت إلى الباب الحديدي المطل على الشارع تحت عمود الإنارة الأسود تماماً، فتحت البوابة شعرت بالحديد البارد ينعشني، كيف لي أن أعيش هنا لسنوات ولم أفتح بابه مرة!

مشيت إلى الطريق الجبلي المعبد بدقة، أخذت نظرة بعيدة على الشارع المنار بأعمدة طويلة، كان الإسفلت يلمع وكأنه قد غسل الآن والهواء منعش جداً بدأت أمشي بخطوات بطيئة وبتسارع ضئيل ثم مشيت ومشيت....

حتى لم أعد أرى المنزل خلفي، جلست بجانب الطريق. أخرجت هاتفي وبحثت عن اسم ليزا وكتبت رسالة لها:

_أيتها المشاكسة البعيدة القريبة أخذتني من نفسي.

وكتبت رسالة أخرى:

_أنا جالس على طريق جبلية على صخرة بيضاء أتأمل المدينة، أرى آلاف الأضواء وتحت كل ضوء هنالك قصة وحلم، متيقن أنك هناك في مكان ما، تجلسين ربما مع أحد ما لا أخطر لك على بال، ترتدين بيجامة رياضية ضيقة وحذاء رياضياً أو تتنقلين بسرعة بين محال تجارية عالمية لإضاعة الوقت ولتغذية أنوثتك بكل حال أنت أكثر من أنثى .

ثم رسالة أخرى:

_إن رأسي فارغ تماماً.

وصلتني رسالة منها :

_غداً سيكون المشروع قد أتم 25% من العمل لذا هنالك اجتماع مجلس إدارة أرجو أن تحضر، عمت مساء.

_ أخبرني وكيل أعمالي وسيتولى الأمر.

_ سأكون هناك غداً في الثانية عشرة.

حضرت الاجتماع متأخراً كالعادة، كان وكيل أعمالي قد تولى مسبقاً كل الأمور القانونية.

قبل انتهاء الاجتماع بربع ساعة بحلتها السوداء وكعبها العالي اقتربت مني وقالت بصوت خافت وبدت أنها جادة جداً أو تناقش قضية مهمة مرتبطة بالعمل :

هناك محل كرواسان جديد قد افتتح أنا أتضور جوعاً.

لم آت بأي ردة فعل .

وعند انتهاء الاجتماع خرجنا من القاعة الواسعة وكنت آخر من خرج تقريباً وكانت ليزا ما تزال في الداخل انتظرتها عند الباب وأشعلت سيجارة وحادثت وكيل أعمالي، طلبت منه أن يرسل ملخصاً للاجتماع على البريد الإلكتروني الشخصي. عندما انتهيت من

المكالمة مشت ليزا ببطء إلى الخارج كأنها مترددة أن تقف إلى جانبي وعندما اقتربت كفاية قلت لها :

_تفضلي سيدتي أنا لا أعرف المحل.

مشينا معاً إلي سيارة الرنج روفر رباعية الدفع توجهنا بشكل لا إرادي إلى مطعم آخر توقفت في الموقف الخاص بالمطعم قلت لها :

_لقد تأخر الوقت على الكروسان لنتناول وجبة دسمة.

دخلت وكانت أمامي، راقبت مشيتها الواثقة، وأعجبت بكعبها، ظهرها، وكتفيها الصغيرين وأغازل شعرها بعيني... أجلستها إلى الطاولة ثم جلست، نظرت بعينيها مباشرة، لم أتكلم أبداً لكن طاقة ما كان تدفعني لأنهض وأقبلها .

أخذَت نفساً عميقاً وبادلتني النظرة المباشرة بطريقة أحسست أنها على وشك مهاجمتي .

أطلقت نفساً عميقاً ثم قالت :

_اسمع لطالما كنت وقحاً، ولكنك بطريقة ما تصر على التواصل معي وأنا لا أخفيك سراً أن هناك شيئاً ما يشدني إليك بوسط هذه الأفكار المتراكمة وأنا غير قادرة على اتخاذ موقف واضح مع نفسي

تجاه كل ما حدث فقررت أن آتي بفرصة ثانية لكلينا وعلها فرصة أولى لا أعرف .

_حسناً ماذا تأكلين؟ أنا سوف أطلب شريحة لحم مع نبيذ أحمر ربما تطلبين أنت كوردون بلو لأنها تليق بشخصيتك أو كروسان كونك تتناولين الإفطار عند الثانية.

_سأكتفي بشوربة الفطر .

قالت ذلك بعد أن توترت ملامحها .

عندما أتى الغداء بدأت بالأكل وبعد قليل أوقعت قليلاً من الحساء على الصحن كانت تحاول أن تمسح ما وقع وتزيل توترها معه، قلت لها لأخفف من حدة التوتر.

_تملكين سحراً لا أستطيع مقاومته ولا وصفه، هل أستطيع أن أشرب معك فنجان قهوة في الشاليه عندي؟

نظرت نحوي كان بريق عينيها جميلاً وأحمر شفاهها يلمع أيضاً وكانت تجلس بطريقة أنثوية جميلة.

أخذت ملعقة أخرى من الشوربة ثم وضعت الملعقة وأرجعت ظهرها على الكرسي بارتياح.

_فقط قهوة... لا تعبث .

_ نعم وقليل من البسكويت... ليست جيدة وحدها.

في الطريق بدت مرتاحة جداً، كنت مشدود الأعصاب كالمقدم على خطيئة ما، أو علّها مقاضاة الذات، كيف أنني كنت مرتبطاً بفتاة قبلها والآن أقفز إلى أخرى، لا أعلم إلى أين نحن ماضون، وإن لم نمض فهو مطب آخر، على أي حال لم أكن يوماً من عشاق التنقل ما بين أنثى وأخرى لأنه بنظري أن الأنثى بحد ذاتها أو الأنوثة بشكل خاص هي مفهوم آخر، بل ربما ترتقي لتكون بعداً آخر في جنسنا البشري، يُمكن لامرأة واحدة تُقدّر أنوثتها جيداً أن تأخذك لعالم آخر حتى لتشعر أنك في مكان جديد تماماً لا تعرفه مسبقاً، وإن استحق الأمر، قد تذهب معها إلى بُعدك غير المُكتشف وتعيد النظر في غالبية مفاهيمك عن أي شيء وبأبعاد جديدة تماماً.

فكرة الارتباط بحد ذاتها وإن كانت صحيحة وعلى المعايير المناسبة تماماً وهي وجود الذات الناقصة مكتملة بذات أخرى وهذا ينطبق على الجنسين إن صح هو كرجل...

كانت جالسة بجانبي متكئة على أريكه السيارة، وضعت حزام الأمان، شعرت بجمالها الأخاذ حتى أنني لوهلة خطر لي أن مصمم هذه السيارة صممها لتجلس واحدة تشبهها أو بالأحرى هي ذاتها...

انطلقنا نحو البيت الجبلي كنت أيضاً مرتاحاً جداً ثم فجأة توترت

كانت تتمتم مع أغنيه "amy macdounald "this is the life

بدأت أدندن معها ثم علا صوتانا لنغني الأغنية معاً...

وصلنا للشاليه وكنت متفائلاً جداً... (حقاً إن كل تفصيل صغير يترافق مع نشاط ما يضفي عليه روحاً وطابعاً) دخلنا من الباب الأمامي ثم إلى بهو المنزل ثم إلى الطابق العلوي فالتراس المطل على سفح الجبل...

إنها الخامسة مساء والشمس تغرب مع نسمة جبلية باردة وهدوء كبير... جلسنا حول الطاولة الخشبية المصنوعة يدوياً على كرسيين مريحين جداً وخلال دقائق أتت جوليت بالقهوة مع قطع شوكولاتة سويسرية من النخب الأول، ولكسر الهدوء وضعت موسيقا كلاسيكية.

تحدثنا عن بعض العادات التي يمارسها النمساويون والهولنديون والفروقات فيما بينهما ثم جرنا الحديث إلى الاقتصاد الأوروبي وحسنات وسيئات اتحاد العملة وتاريخ ألمانيا وتأثيرها على المجتمع الألماني الحالي.

حدثتها قليلاً عن بلدي الأم وكيف وصلت إلى أوروبا وإنني بطريقة ما أصبحت أحد رواد الأعمال على مستوى ليس بسيئ بل جيد جداً..

حدثتني عن والدتها المكسيكية وأنها الآن في المنزل وأنه يجب علي أن أستمع لها عندما تتكلم عن لحظة لقائها الأول بوالدها في الولايات المتحدة عندما كان في ميامي لأول إجازة له مع عائلته حيث صادفها في مطعم مكسيكي تعمل به.

حين وقعت عيناه عليها أحبها وهام بها، وعلم أنه وجد شريكة حياته .

وكيف أنه بعد فترة لا تتجاوز أسبوع تركت عملها وأمضت الوقت معه في إجازته، وعاد بعد ثلاثة أشهر، عاشوا قصة حب جميلة .

ثم قررا أن يأتيا معاً إلى النمسا.

قالت لي:

-هي دائماً تأتي على هذا الحديث وكأنها ترويه للمرة الأولى، أو كأنها التقت بأبي البارحة هذا وإن دل على شيء يدل على أن العلاقة منذ اللقاء الأول كانت في أفضل مستوياتها.

بعد أن أنهينا القهوة أطلعتها على المنزل بشكل عام ثم وصلنا إلى غرفة التسلية التي تحوي هواية مشتركة لكلينا وهي التنس، حين رأت

المضارب معلقة جانباً، اتفقنا أن نذهب لنلعب سوياً ولكن بما أن كلانا مبتدئ تبرعت ليزا بأن تأتي بمدرب .

انتهت الأمسية بكوب من الشاي في الصالون السفلي وكنت في هذه الأثناء أتناقش معها رواية 1984 لجورج أورويل والخلود لميلان كونديرا، كانت الساعة حوالي العاشرة مساء.

اعتذرت ليزا بأنها تريد الذهاب، أوصلتها ورجعت منزلي، وفي طريق العودة قدت سيارتي مستمتعاً وكنت استمع إلى

Edith Piaf، يا لهذا الصوت الجميل!

توالت الأيام بسرعة، كانت ممتعة جداً، نهاري أصبح منتظماً أكثر، التزمت بالأعمال المكتبية، وذهبنا معاً إلى ملعب التنس مرتين أسبوعياً، لم أتوقع أن تكون هذه اللعبة مرهقة بهذا الشكل كانت ليزا تبدو جميلة ومغرية جداً ببشرتها البرونزية وخصلات شعرها المتناثرة وبالأخص عندما تلمع بشرتها من التعرق أثناء اللعب...

بعد أسبوعين من ذلك المساء أثناء خروجنا من الملعب دعتني لأقابل والدتها أدريانا حاولت التملص كوني متعباً ومتعرقاً لكنها أصرت أن أقابلها...

ذهبنا بسيارتها الميني كوبر وصلنا المنزل واستقبلتنا السيدة أدريانا بوجه بشوش كان لغتها الفرنسية الممزوجة بلكنة إسبانية

تضفي عليها رونقاً ما، ليزا تشبه أمها إلى حد كبير حيث تملك نفس الجسد الأنيق المتناسق ولكن والدتها ممتلئة الوجه أكثر بقليل من ليزا.

تشعر بالتفاؤل بمجرد رؤية هذه السيدة .

جلسنا في الصالون وأحضرت لنا القهوة مع قليل من الكونتشيس conchas المكسيكية اللذيذة، وأخذت أتحدث عن عملي وماركوس وكم من الوقت مضى علي هنا في النمسا، وفي وسط الحديث وقفت مبتسماً واضعاً يدي في جيبي انحنيت قليلا إلى الأمام وقلت لها :

_حدثيني كيف التقيت بوالد ليزا في ميامي!

ثم اقتربت إلى الكرسي المجاور لها.

ابتسمت وبدأت حديثها كما وصفته ليزا مفعماً بالحيوية وفي عينيها بريق من نوع آخر، كانت تفرك يديها وتضحك ببعض الأحيان وتجلس مرتاحة إلى الخلف كمن يشعر بفخر شديد تجاه شيء ما بطريقة أو بأخرى، ثم تنحني وتخفض صوتها لتوصل إلي بعض الأفكار العميقة.

قبل انتهاء الحديث دخل والد ليزا وقال:

_لكن سحرك سيدتي ما زال موجوداً حتى الآن لم ينته حتى أني أتمنى أن أعيد تاريخي معك منذ البداية.

اقترب مني بثبات وصافحني بقبضة قوية ثم قال:

_إذن أنت كريم شريكنا الجديد وصديق ليزا مؤخراً.

_نعم، كريم...

قبل أن أكمل قاطعني قائلاً:

_دايفيد

وتحدثنا قليلاً عن سوق العمل وأسعار العقارات والسيارات وأوضاع البلاد الاقتصادية والسياسية .

كانت أمسيه ممتعة جداً.

مر الوقت مع ليزا سريعاً جداً، أصبحت هي وماركوس عنصران فاعلان في حياتي في العمل في العلاقات الاجتماعية، في التسوق، في الرياضة، كنا نمضي الوقت معاً كعائلة تماماً غير أن غيابات ماركوس المتكررة لزيارة سلام خاصة في فترات العطل كانت السبب الوحيد لعدم تواجده دائماً معنا، لكنه كان يعود متحمساً جداً للبقاء خاصة أنه بعد ثلاثة شهور انتقلت ليزا للعيش معنا ثم... قررنا بعدها أن نقوم بزواج كنسي وبدأنا بتحضير الترتيبات...

كل شيء كان مرسوماً بطريقة هادئة وجميلة.

استعنّا بمصممين لكل تفصيل في هذه المناسبة.

كنت قبل ليزا فاقداً الأمل بأن التقي بفتاة تطعم أحلامي وتشبعني خبز الحب أو أنني وبعد كل التجارب التي خضت من الممكن أن أرسو بسلام مع صبية تكاد تزيح قلبي وتجلس مكانه.

بدا ارتباطي بليزا حقيقياً حتى أنني أصبحت مفعماً بكل شيء فيها بشكل لا يصدق وخارجاً عن سيطرتي الذاتية، باتت أنفاسها تتخللني تماماً حد الإدمان... وإدمان الإدمان.

لقد تقرر كل شيء من خيار واحد لم نكن مضطربين في خياراتنا... كل تفصيل صغير.

بدلتي الرسمية...فستانها... ديكور الحفل... مواقع التصوير في جبال الألب وعلى نهر إينز وبعض الأماكن العريقة والريفية في النمسا.

ماركوس كان متفهماً تماماً لهذه العلاقة ولحسن الحظ أنه لم يكلفنا الكثير من الجهد حتى أخذ يستمتع بها، من الفترة الأولى ليزا تشاركه كل تفاصيل حياته حتى أنه بدأ يشعر أن الرحلة إلى سلام

بين الحين والآخر، هي واجب أخلاقي لا أكثر... لم أرد لذلك أن يحدث على أية حال، تبقى سلام أمه، لم أحادثها منذ فترة طويلة جداً...

دايفيد وأدريانا كانا سعيدين جداً، حتى أنه بدأ يزور مكتبي بشكل يومي بعد انتهائه من أعمال شركته، وأنا أخذت أنتظم في مواعيدي وأعمالي بشكل أكبر وملحوظ، على الأخص أنني توقفت عن تجارة القنب في الفترة الأخيرة، حيث كانت من أهم مصادر دخلي إلى أن استبدلتها بحصص كبيرة في عدة مشاريع أخرى وبعض الاستثمارات الصغيرة.

كل شيء قمنا به كما وكأنه رتب لأجلنا كل شيء تماماً، بدأت آخذ فترات أكبر من النوم وأمارس الرياضة بانتظام حتى أن ليزا اختارت لي قصة شعر جديدة _أحببتها جداً_ كانت تمشط شعري إلى جهة اليسار مصففة إياه بالمقوي وتشذب ذقني بيديها الساحرتين.

كنت أشعر أنني تحت تأثير سحر أنثوي نقي منقطع النظير في هذه اللحظات وأشعر أنها لن تنتهي يوماً.

ولا بد لي أن أتحدث عن صديقة الحوارات الشيقة التي تنتمي إلى بيئة مختلفة تماماً والتي طالما أمتعتنا بالحوارات العائلية مع ماركوس وليزا... ساج

كانت (ساج) صديقة ليزا في بداية العقد الثالث من عمرها ولدت في بلدة ريفية متأثرة جداً بالكنيسة وترعرعت وهي تحمل الكثير من مبادئها الثابتة، مع أنني على علم ودراية بأن المبادئ دائماً متغيرة غير أنها حتى الآن تمتلك من الثوابت ما يكفي لفهمها بشكل سريع أو على الأقل خلال الفترة الأولى من تعرفك عليها، على سبيل المثال دائماً ما ترتدي التنانير الطويلة نوعاً ما وتعارض ملابس السباحة، لم يكن لها علاقات سابقة قبل زواجها (علاقات عميقة) لديها ارتباط وثيق جداً بمجتمع الكنيسة وتتقيد ببعض العادات الاجتماعية والفردية المرتبطة بها.

لم أستغرب أن ليزا لم تظهر علاقتها الوثيقة بها في أول مراحل تعارفنا فغالباً في المجتمعات الأوروبية هذه الشخصيات قلما تقترب من شخصية ما تشبه ليزا أو تشبهني.

في لقائنا الأول وعندما جلسنا في المنتزه المطل على البحيرة

كانت أحاديثها وتصرفاتها وكأنها غير واثقة من أنني وليزا على أهبة نجاح عميق في علاقتنا وطالما نصحت كلانا بأن نتروى في كثير من الأحيان.

في جلسة ثانية قالت لي ليزا إن ساج حذرتها كوننا نحمل أصولاً عربية نشبه كثيراً مجتمع الكنيسة. وحتى إن صح الكلام لماذا ننعته بالتحذير! على أي حال أخذت زمام الحديث مباشرة ورحت أسرد :

-نحن لا نختلف على أننا أكثر المخلوقات فوضوية على هذا الكوكب المبتلى فينا، ولا نختلف أيضاً على أن الفوضوية هذه جزء من مسيرته وهي صحية في بعض الأحيان وتتفاوت بين حين وآخر وبين مجموعة وأخرى .

أعتقد أنه في خضم الأزمات هناك تنسيق آخر دائماً يأخذ مساره ليعيد بعض الأناقة للأحداث والمناطق والمجموعات التي لا تحتمل قدراً أكثر من معدل الفوضى فيها .

خلال تاريخنا البشري أو على الأقل كما كتب (والله أعلم إن كان ما كتب قد حدث) تعرضنا للكثير والكثير جداً من الأزمات بعض منها كان بسبب الطبيعة الأم وأغلبها كان من البشر وعند تخطي أي أزمة كان هناك نظام جديد اكتسبناه بالفطرة (فطرة النجاة) جعلنا مشذبين أكثر وأعطانا قدرة أكبر على فهم حقائق ما يحدث كما هي .

ولأننا أيضاً بطبيعتنا نميل لأن نكون فاسدين ونميل للشر غالباً بالأخص في أوقات الأزمات كنا وما زلنا نستعمل خلاصة الأزمات لتخدم مصالحنا الشخصية والاجتماعية والإقليمية.

فأقمنا الحدود بين الدول وميزنا بين الأعراق والأديان (التي حرفناها أيضا لتخدم مصالحنا وطبيعتنا) وجعلنا فيما بيننا فوارق كان لابد منها حتى نصل إلى ما وصلنا إليه .

رغم كل هذا اليوم نجد من ينتقد هتلر ويشتم النظام العالمي الجديد، وتجد من يؤلّه تشي غيفارا ومانديلا على الرغم من أنهم هم أنفسهم أكثر شراً من غيرهم لكن شخصاً ما في وقت مناسب جداً أغفل كل ذنوبهم .

الخلاصة يا صغيرتي الأنيقة :

-إننا كلنا وبالإجمال متساوون تماماً لكننا نبحث عن فرق ونصنعه ليخدمنا كما نفعل دائماً

رمقتي ساج وقالت:

-لكن حب الله خالص لا ينتهي .

قلت:

-لكننا نحب بعضنا حباً خالصاً لا ينتهي حتى الموت أحياناً .

-أتقارن بين الحُبين؟!

-بل إن حبنا هو جزء من الله وضعه بنا، أتحدين منه بتعبير أو كتاب أو طقس معين؟ هل عشقت يوماً شيئاً حد المخاطرة بكل ما تملكين؟

-نعم

-وما هو

-بغض النظر ما هو .

-إذاً هاك كتابنا المقدس بيني وبين ليزا .

-و ما هو؟

أخرجت هاتفي النقال ورحت به إلى المذكرة اليومية .

وقرأت لها :

-حصراً نبض قلبي يهتف بك

يلهف بك

تقاسمينه المكان وضوضاء سحرك

حصراً أنت ... أنوثتك .. هجوم زنابق وجهك

وليلك الليلكي وقبس لطفك

حصراً هنا على صدري مخدة حسنك

وعلى أنين روحي تناجين روحك

وغرور خصرك ورحيقك

وعيناك أطوف بها زماني

وأحبك...

وإني أحبك وأحب قربك

ثم نظرت في عيني ساج وقلت :

-هذه رسالة نصية في وقت متأخر من الليل أرسلتها إلى ليزا .

-أنا في نظري كل ارتباطاتنا متشابهة وكل حسب نقاء روحه. إن الله لا يختصر في دار عبادة حتى لو كانت الطريق إليه، لكن الطريق خارج الدار أطول بكثير إليه يا صديقتي .

والحياة تشاء أحياناً ما لا نشاء وترمينا في بُعد علّنا نكتشف ما داخل الذات من ذوات ضاق بها الجلوس فأمرت الكون بأن تنهض... دعينا من ذلك الآن .

نظرت في عيني ليزا وأكملت :

-مررنا البارحة بمكتب طيران وحجزنا ثلاثة مقاعد إلى المغرب

لقد حدثتني ليزا أنها من مفتونات تلك الحضارة، وأنها على مر العصور وعلى توالي الاستعمارات التي حكمتها امتلكت مزيجاً ما بين الشرق والغرب والأمازيغ والعرب والفرنسيين وغيرهم فعلا إنها استحصلت على خيرة الثقافة العمرانية من كل ما مضى عليها...

هنالك في مكان ما حياة ما تنتظر أن نحياها .

هنالك في ذلك المكان البعيد أراك تتراقصين سعادةً، وأرى نفسي على إحدى خطوات الحلم .

هناك تماماً حيث نرنو وقدر لنا أن نكون وأن نحيا تفاصيل الحب الدقيقة بكل ما أوتينا .

هناك ينتظرنا علنا في ساعة ما نعرف من أين يبدأ الطريق

وإني أحبك ...

وعندما أصل إلى ذروات حالات الحب تتكون أيقونات لآلئ سماوية وتكتسب الأرض استدارتها الأنثوية وتبدأ حضارة ونقوش جسد .

ويبدأ عندك اليقين

عندما يضيق ليلي

ليلي أنت

فليل العاشق لا يضيق إلا حباً

وعندما يفيض حباً عشقي كنت

منذ أن كنت لك قلباً

أتعرفين ما الذي يأخذني فيك

يأخذني كلي وكلي أنت...

وأنت أنا... عمر العاشق يُقتضى جواً.

قالت لي ليزا أنا أحب الحضارة العربية حد الشغف.

قلت إنك تحبين أفكارك المسبقة عنها فقط .

عندما تهجر البقعة العربية أنت مطالب وبشكل تلقائي بأن تعود بنتائج فائقة.

نعم هذا هو الحال في أرضنا التي تقتل الأحلام والفرص أنت تغوص في عمق أكبر تحت مجهر المجتمعات الشرقية التي اجتمع بها من الأمراض النفسية ما لا يعد ولا يحصى .

أنت مجبر على البحث عن نجاح أكبر بشكل مستمر لا عن سعادة تامة حد النشوة .

نعم مفهوم السعادة حد النشوة لا ذكر له في قواميس التربية العربية إلا متأخراً عندما تبدأ ثقافة الجنس خاصتك بالظهور والتكون والتبلور (حتى هذه بها من الفهم الخاطىء ما يقلب المضمون كاملاً)

وها أنت تمضي تبحث عن المال وتبحث عن النجاح وتبحث عن الأكثر والأكثر .

وعند كل نقطة وصول يزداد المجهر حدة وتزداد جاذبية المجتمع التي تسحبك نحو سقوط مؤلم حد الموت وفي بعض الأحيان إلى الموت نفسه وأنت لا تزال تتجرع أنفاسك بصعوبة لأنه ومع كل خطوة تكبر البلاطة التي وضعت على صدرك ويزداد وزنها إلى أن تهوي بقلبك إلى مفر ما أو إلى أقرب مستشفى.

هذه هي دورة حياتك هنا تهجر بعيداً وتمضي إلى أبعد ما أمكن وتختبئ خلف آلاف الكيلومترات ثم تعود عودة واحدة كي تتيقن أنك كنت على صواب كبير، وأن كل الأسباب التي دفعتك للمضي والهرب لا تزال موجودة وبقوة...

قالت:

وفي البحث عن السعادة يتغير هذا المفهوم بتغيير بنيتك السيكولوجية والطريقة التي نشأت بها وأسباب النشوء هذا

منا من يرى المادة ومنا من يراها الحب ومنا من يراها النجاح وأنا أقول في رأيي أن الحب هو مصدر النجاح الذي يدفعك وبشكل تلقائي أو كنتيجة حتمية لاختزان المال هذا هو سر المعادلة .

الحب والحب أولاً وأخيراً

أبحث عنه في أبعد مكان

أبحث عنه في أعمق بقعة في قلبك وفي أقسى الظروف التي اعتقدت يوماً أنها لم ولن تجري لصالحك

أبحث عنه في أصدق مكان بداخل روحك

واترك لنفسك العنان... به كل العنان

افتح ذراعيك وطر كما لو أنك خلقت لتطير عالياً وبعيداً

وعند الوصول إلى أقصى ارتفاع ممكن، اهوِ بثقلك دون النظر إلى نقطة الوصول.

قلت: عند الوصول يكون الحب إما على بعد قشة من نقطة انطلاقك أو أنه على بعد كواكب لكنك هويت إليه فهو مصيرك بكل ما أوتيت من خوف وتعب وشغف وطاقات...

أنت تبحث عن انتقام من كل ما لديك وعندما تصل إلى القدرة على هذا الانتقام حلق بعيداً بحبك الذي وصلت إليه فهناك فقط في ذاك البعيد أنت هو أنت

أنت ما حلمت... ما تمنيت

أنت كل الكل داخل كلك، وأنت لا شيء في هذا الخضم كله سوى روحك الناجية من الانتقام الذي طالما رنوت إليه .

إن انتقامك الوحيد هو من ذاتك التي طالما شذبت وهذبت وصقلت .

وهنا أنا أقول لك أن تقدرها وأن تمضي قدماً فالبعيد قد مضى والقريب هو أنت غداً.

قالت ساج ولا أنكر أنها فاجأتني :

أبحث عن صديق تصفعه فيضمك إلى صدره

تشتمه فيبتسم ولا يرد الشتيمة، تبكي أمامه فيحمل جرحك في فيض عينيه ويأتي من روحه ببلسم .

تأتيه فرحاً فيدفعك للتحليق عالياً ثم تعود إليه هادئاً لتمضي به حيث مضى بك .

وأنا أقول لك ليس هناك بعلاقة متكافئة تماماً وإن كانت فهي في جداول الفيزياء والرياضيات فقط .

نحن خرجنا لنغرد خارج السرب وفي هذا المفهوم ما يكفي من التغريد الحر أنا ملتزمة بالكثير من ثقافة الكنيسة لكني لست ملتزمة حرفياً ...

وأكملت:

قل لي شيئاً صعب المنال يا كريم .

قلت :

-كتبت هذه مرة عند فقداني جنى قبل فهم مرضها :

أريدك بمقدار ما لا أستطيع أخذك، وأستطيع أخذك بمقدار ما ترفضين ذلك، وأنت ترفضين ذلك بمقدار ما تريدين الاحتفاظ بنا معاً، وأنا وأنت نريد أن نظل معاً بمقدار ما يضعنا ذلك في اختصام دموي مع العالم!!

وجهك يلاحقني

أكاد لا أخطو خطوة واحدة أو ألتفت يميناً أو شمالاً ولا أراه

يحملني إليك كل هذا الشوق الذي لا ينتهي

هنا نحن ذا وأنت بجانبي ...

وذات يوم قلت لليزا

-يحملني إليك حلم كبير كل ما مشينا به خطوة اتسع أكثر، هذا الحلم لا ينتهي

إنه فقط يتسع ويكبر

عندما أريد أن أتحدث إليك من كثرة التفاصيل أتلعثم ورغم اتساع حيلتي بالكتابة والتعبير والحديث إلى الحسناء التي أحب

تخونني مفرداتي وأفقد القدرة على تركيب الجمل بين الحين والآخر

هذا أنا المتكبر البارد الذي لا يعرف كيف يحب تفاصيلك

هذا ولأنني يا سيدتي في عمق ثمل العشق.

كلما أمسكت بقلم لأكمل كتابي الذي أحببتِ ما رويت فيه يأخذني هذا القلم إليك

إنه جذب العشق إلى العشق حيث وأننا في هذا التيه تائهون

وإني أحبك...

ساج ومع الزمن أخذت مكان الصديقة التي لا تنضب واستمرينا حتى يومنا هذا .

وفي نهاية الحديث اتفقنا على مفهوم نذكر بعضنا به بين الحين والحين . ولأن الفرار وسيلة دفاع لا نكف عن استخدامها بوجه أي مفهوم كان (ثامن المستحيل هو أن تصلح شخصاً وقد عطب، حباً، شوقاً، أو خذلاناً).

كان هذا حديثنا الأخير قبل سفرنا المفترض إلى المغرب والذي لم نذهبه قط...

في مساء اليوم التالي خرجت ليزا مسرعة من الشاليه الجبلي لإنهاء أمور مستعجلة على نية العودة قبل الظهيرة

بعد انطلاقها بوقت قصير تعرضت لحادث سير عند سفح الجبل وبقيت وحيدة لبضع دقائق قبل أن يلحظ أحد انقلاب السيارة من الطريق إلى جانب الوادي.

لم يخبرني أحد حتى وصلت إلى المستشفى هرعنا إليها أنا وماركوس وقبل وصولنا كانت قد غادرتنا... على عجل دون وداع مناسب دون أن تخبرنا عن نيتها بالرحيل

دون أن تكتمل سعادتنا بها.

ذهبت ليزا إلى حيث لا عودة وذهبت بي ذاكرتي إلى نقطة البداية حيث أنني رحلت بسبب مفاجأة مشابهة تماماً...

اختلط عليّ المشهدان بين الواقع والذاكرة بين أنني لا أريد أن أصدق شيئاً من الماضي والحاضر.

بين أنني الآن وماركوس مذهولان تماماً

بين أن الحياة دائماً تعاقبني بمن أحب

دائماً ما تأخذ مني قطعة من روحي على عجل تحفر ندباً ترسم خطوطاً جديدة على وجهي وتلون المزيد من شعري بلون الرماد الذي يسكن قلبي

إنه انعكاس ما تبقى من الروح فقط لتحريك جسدي الذي ملها.

بكيت كطفل صغير، بكيت فقدان الأم، فقدان العشيقة الحبيبة فقدان سلام الروح، فقدان ما يحركني فقدان كل ما هو .

ليزا

كيف لي أن أبدأ صباحي دون رائحتها

لمن أتحدث اليوم عن ماركوس وعن عملي وعن كل ما يشكل بقايا روحي التي عُذبت بالحب وجلدت جلد المذنبين بحق نبوة أو إله

كيف أصعد طريقنا الجبلي وهي لا تنتظرني

كيف أترك أي مكان وهي لم تودعني

كيف أرثيها ..... أنا الذي بت بحاجة لأرثي نفسي

ماذا أكتب لها في غيابها وأنا الذي يريد أن يكتب اسمه على الشاهدة بجانبها

كيف لي أن أقول لها بسلام... يا حبيبتي .... ارحلي رحيل الأثير. رحيل الملائكة وأنا أصلاً رحلت عند رحيلها

لم يبق شيء بهذه الروح يا سيدتي... لم يبق منها أي بصيص نور لكي تحيا

إلى سماء أخرى؟

هل من غليل بحجم غليلي؟

من مات غيري في كل خسارة كبرى؟

من هرم غيري عند كل حلم تحطم ورحل؟

في دمشق وبعد هذا السرد الطويل

وضعت قلمي على الطاولة ووقفت وقفة المتعب المثقل .

مشيت إلى المرآة الدمشقية القديمة المعرقة الصافية كصفاء وجهها

نظرت إلى وجهي وحدثتها

هذه التجاعيد التي ترينها إنها آثارهن

أعمقها يعود إلى جنى والفراغ الصافي المتبقي

ينتظر منك أن ترسمي به ما شئتِ

هذا حال الشعر الرمادي الذي بدأ بالظهور في أول العشرينيات من عمري.

كنت مرهقاً حد الفزع.

كنت متعباً حد الموت ولم أمت

كنت أخزن من القوة وعنجهية النهوض والقدرة على أن أكون أنا الذي أصبو

حد تغيير العالم

وهذه هي النتائج الطبيعية للاختلاطات التي ذكرت

تعمقي لتقرئي حاولي أن تري وجهي كما لم يره أحد من قبل.

تخيلي أنني وفي التفاصيل مازلت أراقب خط يدي إن كان غير مقروء بالأخص لأنني نفسي أعجز عن قراءته في بعض الأحيان .

نحن لا نفهم أنفسنا بقدر اعتقادنا بأننا فهمناها ولكننا وبسبب اعتقادنا الخاطئ هذا نمتلك القدرة على التغيير الإيجابي حسب احتياج الظرف لتغيراتنا هذه.

نحن اليوم ومنذ الأزل نستهلك البشرية بنفس الطريقة تماماً رغم اعتقادنا بأن هنالك أشياء اختفت ودثرت إلا أنها موجودة وبحضور قوي إنما بوجه آخر من التواجد

نعم يا صغيرتي إن الأشياء تتقمص

فأجابتني :

إن حجم الخسارات يكون بقدر عمقها داخل أرواحنا.

وإن الذي يمضي يوماً بعد يوم هو تكرار شروق الشمس لكننا نملؤه بجزء جديد من أرواحنا لربما شكلته البارحة أو قبل دهر .

لا معنى للوقت في هذا المفهوم الذي أمضيتني به .

إن لكل شيء رد فعل أو نتيجة، عقاب أو ثواب جرح أعمق أو التئام جديد لأرواحنا.

ما بدأ في أي حين لا بد وأن ينتهي في حين والخيار على قدر صبرنا ومثابرتنا .

هكذا يظلم الظلام، إنهم يثابرون وهكذا تأتي الحقوق أيضاً بالمثابرة .

لكن الفرق هو أن من ثابر على كذب يأتي عليه برد فعل عكسي تماماً ولو بعد دهر، وتكون الخسارة أضعافاً مضاعفة على قدر مسافة الزمن المسروق من الحقيقة.

قلت :

في الحب ما هو إساءة له في أن نُدين بِه وأن نشيد به وأن نكون حاضرين راحلين .

وبه منك ما لا يشاع به مقياساً كي يوثق أو يترتب عليه من التوصيف أو حتى أن ينثر على ورق أو أن أستعيد الصياغة به أو الترتيب

فيه الكثير من السرد اللبق كما لباقة وجهك

وأفكارٌ تدور بمحورية حولك كما أنثورة أو سرديةٌ أو جزلية

كما أتحدث مطولاً وأقصر في التعبير وفي الحب منه ما يشاء بنا وما لا نشاء به وما لا يتطابق مع المنطقية أو اللامنطقية

هو الليل الطويل وشرب من قهوةٍ جافة

كذبٌ جميل ومواعيد لم تنضب بعد

هو أنتِ ما بين شهقات أمالي وشذرات أفكاري

و ثوراتك الهامدة .. وبراكين جسدٍ مدمى

وسعادتي بالكذب الجميل

هو الحب.. .

هو أنت... هو أنا... نتزامن والليل الطويل

-و أكملت سارداً بصوت عال ووجهي هذه المرة نحو السماء من نافذتي

لست بقادر أكثر على أن أكتب أو أقرأ أو أرتكب أي عنف كان

بحق ذاتي أو بحقك، بت غير قادر على جريمة ثانية بحق هذا الحب

كيف لي أن أستعيد الثقة بأن حبك ما زال كما هو، أنك أنت هي، وأنا أصلاً لم أفقدها بل الذي فقدناه كان في تحليلي أقل من هذه الخسارة بكثير لكنه أعمق

كان المسافة بين الوجود واللاوجود

كانت حيرة الثقة أو اللاثقة

كانت غربة أخرى من نوع آخر

يا وطني وغربتي

أيها الحب الذي لم أعد قادراً على تسميته

استحضرني حديثي معكِ رسالة كتبتها لسلام بعد فترة قصيرة من فراقنا، كتبتها لكنني لم أرسلها أبداً وفي كل مرة أجدد احتفاظي بها بدون سبب فقط لأني أريد الاحتفاظ بها، ولم أقرأها لأي كان فيما سبق لكنني سبق وقرأتها بيني وبين نفسي بضع مرات في كل بضع سنين :

أكاد أن اختنق مجدداً

أسأل عنك سراً

هذا الوجع أكبر من أن يحتمل

يأخذ حيزاً كبيراً حتى الآن

أتعلمين أيتها الحبيبة السابقة

إنني حتى اليوم لست بقادر على أن أستعيد جزءاً واحداً من ذاتي ولست بقادر على أن أترجم جزءاً صغيراً منك كعادتي.

ذات يوم أخبرتني كل شيء

كل شيء عميق دون كلام، دون وصال.

دونما أن تعرفي أي هواء أتنفس وعلى أي ماء أرسو في قلبي سواء كنت راسياً أم لم أكن

كنتِ واثقة مثلي تماماً أننا لا ننتهي

إن التعب لن ينال منا إلا إذا اقترفنا أكبر كبائر الحب وهي بعدنا الذي دمر ما لا طاقة لنا به على ترميمه .

أكثر ما يتعبني أنني لست بقادر على أن تكوني غير أنت

لكن كيف عساي أن أترجم تقبلي كون البعد أصبح بأربعة مسافات بدل الثلاثة وأن أعيش عشيقاً لا يملك منك إلا كلك الذي أودعته في حيز آخر ليس عندي .

صدقيني لم تتعبني مسافة ولم يكسر همتي شيء من القلائل والكبائر التي مرت عندي وبجانبي.

كل ما أرهقني اليوم هو الذي أرهقني قبل كلامك الأول بعد قطيعة العمر التي هدتنا في المرة الأولى

إنها ذات المسافة بيننا

إنه السؤال الوحيد

كيف عساي ألا أحبك وكيف لي أن أحبك

أحتاجك اليوم

أكثر من أي ثمين أملك وأكثر من أي غال يساندني

أحتاجك اليوم بطريقة لست بقادر على أن أترجم أسبابها ولا أصلاً عندي الطريقة

إنها الغربة يا صديقتي

غربة الحب لا أكثر ولا أقل

إنك أنت التي عذبتُ، وعذبتني يا حبيبتي

هي صورتنا في مكان ما داخل الذات يا سيدتي

هي كل شيء أودى بنا إلى هذا الصمت

إنها الشيء الوحيد الذي نملك

إنها غربتنا

وهنا في كل مرة أقرأ هذه الرسالة أرى أنني فقدت التواصل معها، وأنها باقية فقط لمجرد البقاء حتى أنها لا تمتلك قيمة الذكرى

إني في النهاية مدمن على الشعور بالحب والكتابة له فقط

وفي الكثير من الأحيان أكتب لأني أريد أن أكتب وأعيش حالة الحب فقط لأني أريد أن أعيشها وأمضي بها الى البعيد البعيد لأني في داخلي أراه (الحب) وكأنه مغارة عميقة بدون نهاية أصلاً وفيها من الأسرار والخبايا والقصائد وفساتين السهرات والعطور ما لا يمكن أن تنهيه تجربة

أرى أنها وبغض النظر عمن كانت عندما دخلت إلى هذه المغارة تاهت بفحواها توه السكارى وثملت ثمل المعشوقة المدللة وتناغمت مع أنوثتها حتى نسيت أين هي وتوقف الزمان بها.

بل إنها ترفض الخروج أو حتى أن تضيع أي ثانية كانت للنظر خارج مسافة الحب التي وقعت بها

فهي بنشوتها تغرقها في ذاتها حتى لا نهاية

أنا على يقين كامل أن كل الجمل التي رُكبت من حين لآخر وبين فترة زمنية وأخرى قد تجمع في كتاب يسمى (وصايا داء العشق. أو لربما أسميته كيف تحب امرأة) لكني أرى أن الحب ذاته أكبر من أن يتلخص في كتاب أو قصيدة أو بداخل أي شيء آخر.

إنه الحرية الكاملة المطلقة وبنفس الوقت سجن الروح إذا ما كانت في الزمان والمكان الخطأ وهنا للزمان والمكان مفهوم آخر يشبهني عندما قلت لها أنت زماني ومكاني .

إني الآن وبهذه الطريقة أكون قد أعطيتك الملخص الصغير الأخير عن كل ما فات وما مضى ولو أردت فعلاً الحديث عنه لأي كان فحديثي من المحال أن ينتهي أو أن يرسو على أي من رمال الحب أو على شكل قصة .

فأكتفي بالقول فقط ولا أريد أن أعيد نفسي في أي من سطور الهيام القديمة بل إنني أريد أن أعيش الحب يوماً بعد يوم.

قصيدة تلو الأخرى وأغنية ومعزوفة بعد ثانية.

48سنة مرت ... كل واحدة منها كثانية زمنية فقط

تخيلي أنني رويت كل المهم المهم مما مضى معك في فترة واحدة سرقناها

وفي جلسة واحدة طويلة علها أطفأت بداخلك كل الشغف بأربعيني مثلي وأطفأت رغبتي بأن أكون حبيباً موجوداً في حياتك .

وكما قلت لك إن الأشياء والأحداث تتقمص يا صغيرتي وتتكرر بشكل مباشر يومي نعود به لمفهوم الزمان والمكان

على غرار السرد هذا

لكل حديث بقية...